

تِلْكَ سُوْرَةُ يُوسُفَ

تَهْدِيَةُ (آيَاتِ السَّائِلِينَ)



أ. د. ناصِر بن سليمان العبد

الطبعة الأولى

دار الحكمة للنشر والتوزيع

تَلَكُّ سُوْرَةِ يُوسُفَ

تَهْذِيبُ (آيَاتِ السِّتَائِلِينَ)

أ.د. ناصِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْعَمَرِ

تَدَبَّرْ

مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لِيَتَذَكَّرَ اللَّهُ نِعْمَ اللَّهُ ذِكْرًا

تَدَبَّرْ سُورَةَ يُوسُفَ

تَهْذِيبُ آيَاتِ السِّائِلِينَ

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٠١١ ٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٠١١ ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

.....

© ناصر بن سليمان العمر، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، ناصر بن سليمان

تدبر سورة يوسف (تهذيب آيات للسائلين).

/ ناصر بن سليمان العمر - ط ١ - الرياض، ١٤٣٦هـ

١٢٨ ص؛ ١٧ × ٢٢ سم

ردمك: ٥-٧٩٨٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- قصص القرآن ٢- القرآن - سورة يوسف أ. العنوان

١٤٣٦/٤٤٣٥

ديوي ٢٢٩،٥

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٤٤٣٥

ردمك: ٥-٧٩٨٥-٠١-٦٠٣-٩٧٨

مقدمة



الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فكنت قد رأيت أن أشرع في دروس أفسر فيها سورة يوسف؛ لما تضمنته من العبر التي تمس واقعنا، والبراهين التي تثبتها في نفوس المتسائلين، والهدى الذي ترشد بهم إليه، والرحمة التي تنال من اهتدى بهداها منهم، كما قال ربنا عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْمُتَسَاءِلِينَ﴾ ﴿٧﴾ [يوسف: ٧]، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١١﴾ [يوسف: ١١١]، فكانت سلسلة دروس بجامع خالد بن الوليد، بروضة الرياض، فرغت منها عام أربعة وعشرين وأربعمائة وألف، ثم شرعت بعد نحو عام في تسجيل حلقات بعنوان (آيات للسائلين)، بلغت بضعا وخمسين حلقة، بثتها بعض الفضائيات في دول مختلفة والحمد لله، ثم بعد ذلك طلب عدد من الإخوة إخراج المادة في كتاب، ورأيت مناسبة ذلك، فحررت المادة بمعاونة المكتب العلمي، وأضيف إليها وعدل فيها، وخرج الكتاب عام تسعة وعشرين وأربعمائة وألف، ولقي بحمد الله ثناء طيباً من بعض أفاضل المتخصصين، إلا أني رأيت أن فيه طويلاً واستطراداً قد يعوق كثيراً من الناس عن الانتفاع به، ولا سيما مع تفرق الهمم، وضعف الهمم، وتوافر الصوراف في عصرنا هذا، فكان من همي تقريبه وتهذيبه بحيث لا يطول على عامة المسلمين، أو تقصر عنه أنفاس غير المتخصصين، أو طلاب العلم الجادين، وقد تيسر أخيراً بتوفيق الله اختصاره

في هذا الكتاب، وقد كان المنهاج في تهذيبه الاختصار على الفوائد التي تدعو إلى التدبر، وتنفع عامة الناس، ومن أهم ما جرى به العمل:

١- الاختصار على القول الأقرب في أغلب المسائل التي عرضت فيها أقوال.

٢- حذف كثير من الاستطرادات الشعرية والتفصيلات اللغوية والشروح اكتفاء بخلاصتها.

٤- تقديم وتأخير بعض المواطن.

٥- الاختصار على عبارات الأصل إلا في مواضع قليلة.

هذا والله أسأل أن يحقق المقاصد، ويصلح النيات، ويجزي من أسهم في هذا المشروع خير الجزاء، فقد تضافرت عليه همم وجهود، من مبدئه وحتى منتهاه، وكذلك الشكر موصول والدعاء بالخير حاصل لكل من أرسل بفائدة، أو نبه على شيء رأى التنبيه عليه.

وختامًا لكم معاشر قراء هذا الكتاب دعوة بأن يبارك الله فيكم، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا من المقبلين على كتابه، المتدبرين لآياته، والحمد لله على آلائه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه.

وكتب: ناصر بن سليمان العمر

رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

الجمعة ١٤٣٦/٠٢/٠٥ هـ

naser@almoslim.net



أسباب اختيار السورة

لقد اخترت هذه السورة الكريمة لأسباب كثيرة، منها:

١- ما حوته آياتها من الاعتبار والاتعاظ والتذكر، ففيها الإكسير الذي يمكن أن يكون له عظيم الأثر في حياة الأمة؛ إذا أخذت به كما أخذ به محمد ﷺ، وإذا تأثرت به كما تأثر السلف، ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١].

٢- ما حواه خبر يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن من أصول منهج الدعوة، والدعاة في مشارق الأرض ومغاربها بحاجة إلى التذكير بذلك المنهج.

٣- ما فيها من التلازم الشديد بين الشدة والفرج من أول السورة إلى آخرها، ونحن بمسئس الحاجة إلى بث الأمل في الأمة، ففي السورة دعوة للتفاؤل وحسن الظن بالله تعالى، والناس بحاجة إلى من ييث تلك الروح في نفوس كسر بعضها واقع كثير من المسلمين.

٤- معالجتها لثالث خطير؛ كل واحد من أقطابه مهلكة، وقد منعت السورة بمجموعها من دخولها: التنازل، والاستعجال، واليأس.

٥- بيان الثبات في منهج يوسف عليه السلام، واطراده وعدم تذبذبه، من أول حياته، حتى آخر لحظات عمره، والدعاة وطلاب العلم، بل الأمة كل الأمة مطالبة بالاستقامة والاطراد على المنهج الصحيح، ويتأكد ذلك في هذه الظروف التي تُقلّب فيها رياح الفتن القلوب وتصرّفها.

٦- بيان السورة لأهمية القصة وأثرها على حياة الداعي والمدعو، والحاجة تدعو لاستخدام هذا الأسلوب القرآني من قبل الدعاة وطلاب العلم والمصلحين.

٧- ما حوته السورة من دروس سلوكية وأخلاقية وتربوية ونَفْسِيَّة مهمة.

٨- ما حوته من قواعد وأصول في السياسة الشرعية، التي نفتقر إليها كثيرًا في هذا العصر: في الشورى، في التخطيط، في بعد النظر، في التعامل مع الكافر، في العدل، الذي هو أساس قيام الدول... وغير ذلك.

٩- نجد في السورة أيضًا قواعد وأصولًا في معالجة الأزمات، بل إدارتها، على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمة.

١٠- ما حوته السورة من بيان منهاج أهل الحق في الحكم على الرؤى.

١١- إشارة السورة الكريمة لمقومات النصر والتمكين، وأمتنا في أمس الحاجة لتأملها والعمل بها؛ للخروج من هذه الهوة التي تردَّت فيها.

١٢- وأخيرًا، ما اشتملت عليه السورة من أغراض وموضوعات متعددة، وما تميزت به من خصائص ذكرها كثير من أهل العلم ويمكن الرجوع إليها في مصنفاتهم.



بين يدي السورة

اسم السورة ومناسبتها:

اسمها سورة يوسف، ولا يعرف لها اسم خلافة، وبه سماها جماعة من الصحابة، وهذه السورة محورها قصة يوسف عليه السلام فهي أخص سور القرآن به، وهو أخص أنبياء الله بها، بل أخص مذكور فيها، فناسب أن تسمى باسمه.

عدد آياتها:

ذكر غير واحد أن سورة يوسف إحدى عشرة ومئة آية بلا خلاف^(١).

وقت نزولها:

سورة يوسف مكية بالإجماع^(٢)، نزلت بعد سورة هود عليه السلام وقد نزلت في فترة حرجة من تاريخ الدعوة في العهد المكي، بين عام الحزن وبيعة العقبة الأولى^(٣)، حيث اشتد أذى قريش في هذه المدة على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم.

(١) نقل ذلك ابن عبد الكافي في «عدد سور القرآن» (ق ٤٥/ب) عن موقع مخطوطات الأزهر، رقم المخطوط (٣٠٩٤٨٣)، وكذلك أبو عمرو الداني في «البيان في عدد آي القرآن» ص ٦٧.

(٢) ينظر «زاد المسير» لابن الجوزي، أول السورة، ٤/ ١٧٦.

(٣) صحح الحاكم أثرًا تعقبه الذهبي فيه، ينظر «المستدرک» ٤/ ١٦٥ (٧٢٤١)، وفيه إقراء رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعه بن رافع، ومعاذ بن عفراء سورة يوسف، وكان ذلك قبيل مجيء الستة نفر من الخزرج، الذين كانت على أثر لقيائهم بيعة العقبة الأولى. وينظر في خبر الستة قبيل العقبة الأولى «الروض الأنف» ٢/ ٢٤٥.

حتى إن النبي ﷺ أذن لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فنزلت هذه السورة؛ تسليّة للنبي ﷺ ولصحابته، وتبشيراً لهم بالفرج بعد الشدة، وبالتمكين بعد التضييق، كما حدث ليوسف عليه السلام.

سبب نزولها:

روى ابن حبان في «صحيحه»، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه: قال: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلا عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الرَّتِّلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]^(١)

فضلها:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ بها في الفجر (٢)، وفي حديث عبد الله بن شداد بن الهاد: قال: سمعت نسيج عمر بن الخطاب في صلاة الصبح وهو يقرأ من سورة يوسف وأنا في آخر الصفوف، يقرأ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وتخصيصه رضي الله عنه لها في أطول الصلوات قراءة، مُشعراً بمزيد مزية لها عنده.

(١) «صحيح ابن حبان» ٩٢/١٤ (٦٢٠٩)، ورواه كذلك الحاكم في «المستدرک» ٣٧٦/٢ (٣٣١٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد حسّنه جمع من أهل العلم، كشيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» ٤٠/١٧، وابن حجر في «المطالب العالية» ١٢٦/٤، وجمع من المعاصرين.

(٢) ينظر «موطأ الإمام مالك» ٨٢/١ (١٨٣)، و«صحيح البخاري» ١٣٥٣/٣ (٣٤٩٧)، و«مصنف عبد الرزاق» ٥٧٠/١ (٢١٦٩).

الحكمة من سوقها في مقام واحد:

تعددت أقوال أهل العلم في ذلك، ولعل أبرز الأقوال:

- ١- أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم، كما رواه الحاكم في «مستدركه»، فنزلت مبسوبة تامة؛ ليحصل لهم مقصود القصص: من استيعاب القصة، وترويح النفس بها، والإحاطة بطرفيها.
- ٢- وهو أقوى ما يجاب به: أن قصص الأنبياء إنما كررت؛ لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار للرسول ﷺ، فكلما كذبوا نزلت قصة منذرة بحلول العذاب، كما حل على المكذبين، وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك.



وقفه مع القصة في الوحيين



القصة أسلوب تربوي مهم، أولاه القرآن الكريم عناية خاصة، فحفلت الكثير من سوره بعدد من القصص، بل سُميت سورة كاملة فيه بسورة القَصَص، والسنة المطهرة فيها عشرات القصص التي تعالج قضايا اجتماعية؛ مثل: قصة أم زرع وأبي زرع^(١). بل يعلق النبي عليه الصلاة والسلام على قصة موسى والخضر في سورة الكهف، فيقول: «وَدِدْنَا أَنْ مُوسَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبْرِهِمَا»^(٢)، أي: ودَّ النبي ﷺ أن موسى ﷺ لم ينه الموضوع في المحاولة الثالثة لعجيب خبرهما.

وهذه دعوة للدعاة والمربين، ليُولُوا هذا الجانب عناية خاصة، شريطة الالتزام بالضوابط الشرعية للقصص؛ فيتجنب ما علم كذبه، ويسوغ الإخبار بما حكي ولم يعلم كذبه؛ لأجل أخذ العبرة، أو التنويه بمقصد شرعي صحيح دلت عليه الأدلة، شريطة أن لا يُصَدَّقَ وتُرَتَّبَ عليه الأحكام، ويتجنب كذلك ما لا فائدة فيه، وإن كان حقًا، ولهذا فقد أعرض الله تعالى عن ذكر بعض التفاصيل والأخبار في قصص القرآن، بل في سورة يوسف ﷺ مع طولها؛ وذلك لعدم الفائدة، فالتفصيل والإسهاب بما لا فائدة فيه قد يكون لغوًا في أحسن أحواله، وما فيه من الحكمة البالغة والعبر المعتبرة جم غفير، فحري الاشتغال به عما سواه.

(١) «صحيح البخاري» ٥/ ١٩٩٠ (٥٢٧٤)، و«صحيح مسلم» ٤/ ١٩٠١ (٢٣٨٠).

(٢) «صحيح البخاري» ٤/ ١٧٥٧ (٤٧٢٥).



وفرع عن ذلك تجنب القصص التي يطنب فيها بعض أصحاب الأدب، وليست من الأدب في شيء؛ كقصص الغرام والحب، تلك الكلمة النبيلة التي شُوِّهَتْ؛ إذ جعلوه شهوة وتعلقاً بصورة جسد. وربما يقحمون ما لا تعلق له بالموضوع إقحاماً! ويذكرون من التفاصيل ما لا فائدة فيه لمجرد المتعة، وإثارة الغرائز، وتأجيح الشهوات، بينما في سورة يوسف تنبيه على أسلوب ذكر ما يحسن ستره من حيث الأصل من تلك الأحوال فإن اقتضت الحاجة، نبه عليها بما لا يחדش الأدب، ولا يندى له جبين الحياء! كل ذلك في سياق أدبي عالي، وبيان رفيع بديع، تتقاصر عنه أقلام الثَّقَلَيْنِ! ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقد جاء ذكر القصص في القرآن لأغراض، أهمها:

أولاً: تثبيت النبي ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم، ومن بعدهم ممن اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثانياً: التأسّي بالخَيْرين فيما يشرع التأسّي بهم فيه، وتجنب طريق الهالكين من المغضوب عليهم أو الضالين.

ثالثاً: تسلية المؤمنين المصدقين، والترويح عن النفوس المكدودة بذكر أخبار الأمم الماضية، وهذا الغرض من جملة ما يبين وسطية هذا الدين واعتداله؛ فكما أن في تشريعاته الأمر والنهي، وفي أخباره الوعد والوعيد، فإن فيه التسلية والمتعة، والثقافة والفائدة، والترويح الطاهر البريء.

فأي كتاب أحسن نظاماً من هذا الكتاب العزيز؟ وأي سفر أجل وأنبل معاني منه؟ وأي خطاب أرفع لغة من خطابه؟ فلماذا لا يتسلى به وبأخباره الأدباء الألباء؟ وكيف تشبع منه العلماء؟



مكانة العقل في الإسلام



يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

والإنسان بدون العقل يفقد فضله، ويذهب تكليفه. قال بعض الحكماء: الإنسان صورة فيها عقل، فإن أخطأ العقل ولزمت الصورة، فليس بإنسان! قال المتنبي:

لولا العقولُ لكان أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ
ولما تفاضلتِ النفوسُ ودبرت أيدي الكُماةِ عوالي المُرَّانِ
ولهذا عني القرآنُ عناية كبرى بالعقل، فجاءت آيات كثيرة جدًا تحث على التعقل، سواء بلفظ العقل، أو بألفاظ مقاربة تدل عليه: كالتدبر أو التفكير وغيرهما، فكلها تشير إلى العقل مطابقة أو لزومًا أو ضمناً.

ولا شك أن العقل الممدوح هو الذي يهدي صاحبه للعمل بمقتضى الحق الذي يعلم، وإلا فقد يكون الرجل ذكيًا وليس بعاقل، يعرف الحق ولكنه يركب هواه، وقد يكون الرجل عاقلًا وإن لم يكن ذكيًا متميزًا في القدرة على الاستنباط والاستخراج.

وقد سمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل صاحبه عن التصرفات غير المحمودة، وما أحوج الأمة اليوم إلى ذلك العقل، الذي يمنع من الاستعجال، كما يمنع من التلکؤ في موضع العجلة، ويمنع من الإقدام على التصرفات غير المناسبة عمومًا، ويرشدها إلى سبيل استثمار طاقاتها الاستثمار الأمثل.

إن الموازنة بين العاطفة والعقل أمر مهم؛ فأمة بلا عاطفة أمة جامدة، لا تعرف قيم الحياة؛ ولكن الانسياق وراء العاطفة وحدها خطأ كبير جداً، بل لا بد من توافق وتنسيق بين العاطفة والعقل والشرع؛ ويكون ذلك بإرجاع العاطفة إلى العقل، وإرجاع العقل إلى الشرع.

فمتى ما ضبط المرء عقله بلجام الشرع، صار العقل عقلاً شرعياً محموداً، يتجاوز حدود الدنيا القاصرة؛ لينطلق بصاحبه نحو الجنان.

أهم ما يُنمي العقل:

كما أن الجسم ينمو ويكبر؛ فكذلك العقل ينمو ويكبر حتى يبلغ الاستواء، ومن أهم ما ينمي قدرات الإنسان العقلية ما يلي:

أولاً: العلم: وهو من أكثر الوسائل فعالية في تطوير القدرات العقلية، ومن أهم ما ينمي العقل المكتسب بشقيه الإيماني الشرعي وكذلك الحياتي.

ثانياً: التجارب: سواء التجارب الشخصية أو تجارب الآخرين، وهذه واحدة من الحكم التي لأجلها قصَّ الله علينا من أخبار الغابرين.

ثالثاً: الشورى: فالذي يستشير يضيف لعقله عقول الآخرين، ولو استغنى أحد عن الشورى، لاستغنى عنها محمد بن عبد الله ﷺ، ومع ذلك يقول له ربه جَلَّ وعلا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

رابعاً: السن: والسن له أثره في تنمية العقلين: الغريزي والمكتسب، وخلقة الله اقتضت تدرج نمو العقل إلى أن يشتد كما يتدرج نمو البدن مع تقدم السن، وفي ذلك من الفوائد مناسبة العقل للبدن الذي يحمله!



أحسن القصص

يقول تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

بيّن الله تعالى في هذه الآية أن أحسن الأخبار أخبار القرآن، وقد تضمن ذلك القِصَص، فكان هذا استهلالاً بليغاً بديعاً بارعاً لموضوع السورة، وذكر هذه الآية في هذه السورة إشارة إلى أنها من أحسن القِصَص، وليست كقصص الدنيا التي قد تشابهها من بعض الوجوه.

لماذا كانت قصة يوسف من أحسن القصص؟

قال بعض العلماء: لأنها وردت متكاملة من أولها إلى آخرها في السورة نفسها، وقال آخرون: لاشتغالها على موضوعات متعددة، وأغراض متنوعة؛ فقد عالجت مسائل إيمانية وشرعية وسياسية وتربوية واجتماعية ودعوية، وغير ذلك؛ ولهذا كانت فيها كما قال الله: ﴿ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧]، وذهب بعض أهل المعاني إلى أنها وصفت بذلك؛ لأن كل من ورد فيها كان مآله حسناً وعاقبته طيبة^(١). ومن أسباب عدها من أحسن القصص: كونها من جملة قصص القرآن في سورة كسائر سور القرآن، لها تأثير في حياة الأمم؛ فمن عمل بما فيها من مقومات الفوز والنجاح، فاز وسعد، وآل أمره إلى خير.

(١) ينظر «تفسير القرطبي» للآية ٩/ ١٢٠.

وقال ابن سعدي رحمه الله مشيرًا إلى سبب من أسباب عدها في أحسن القصص: «وذلك لصدقها، وسلاسة عبارتها، ورونق معانيها»، ثم قال رحمه الله: «واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة؛ فمن أراد أن يكملها أو يحسنها - بما يذكر في الإسرائيليات، التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب - فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا»^(١).

وإجمالاً: فإن قصص القرآن هي أحسن القصص؛ لصدق معانيها، وللحكم العظيمة المشتملة عليها، فضلاً عن التعقيبات القرآنية، والتوجيهات الربانية المضاحبة لها، فلا شك أن من أحسن القصص قصة يوسف، التي ناسب ذكر هذه الآية في صدرها.



(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٩٣-٣٩٤). ونحو من هذا أشار إليه ابن كثير في «التفسير» ٤٦٨/٢.

المفسرون والإسرائيليات



قبل البدء في القصة، لا بد من وقفة مع الإسرائيليات، التي أسرف بعض المفسرين - رحمهم الله تعالى - في إيرادها في تفاسيرهم في سورة يوسف، وفي غيرها من سور الكتاب العزيز.

والأصل في هذه المسألة: أن التشريعات والأحكام لا يجوز أخذها من غير آية محكمة، أو سنة قائمة، أو ما تفرع عنها مما دلّ على حجّيته. فالرجوع إلى الإسرائيليات، وأخذ حكم عقدي أو عملي منها، لا يجوز ولا ينبغي؛ وإنما أذن لنا في التحديث عن بني إسرائيل دون أن نصدقهم أو نكذبهم، والتصديق والتكذيب يتعلق بما لم يصدقه شرعنا أو يكذبه، أما ما صدقه فنصدقه، وما كذبه فنكذبه، وفي الصحيح: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار»^(١)، ولكن ليس المراد بالتحديث العمل بكتبهم؛ بل أخذ العبر والعظات، والاستفادة مما علمنا صدقه وصوابه، أو حله وجوازه في شرعنا، ولا يخفى أن أخبار الماضين وقصصهم قد تنطوي على فوائد، قد يحسن ذكرها في بعض الأحيان، شريطة ألا يتعدى ذلك إلى إحداث تشريع لم يرد في الكتاب أو السنة، شأنها شأن القصص التي تعرض في حياة الناس.



(١) البخاري ٣/ ١٢٧٥ رقم (٣٢٧٤).

الرؤى وأضغاث الأحلام



من مواضيع سورة يوسف عليه السلام موضوع الرؤيا، ونستطيع أن نقول: إن سورة يوسف هي سورة الرؤى، فقد ورد في القرآن ذكر سبع رؤى في ستة مواضع^(١): ثلاثة مواضع اشتملت على أربع رؤى جاءت في سورة يوسف، وهي قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، ثم الموضع الثاني، وفيه رؤيتا صاحبي السجن اللذين ذكرا له ما رأيا، وكل واحد منهم رأى رؤيا غير التي رآها صاحبه، ثم جاءت الرؤيا الرابعة في الموضع الثالث من السورة، وهي رؤيا الملك.

والناس في موضوع الرؤى بين إفراط وتفريط، فهناك من بالغ في الاهتمام بالرؤى حتى بنى حياته عليها، وأخذ تشريعه منها، وهناك من قصر فيها فلم يلتفت إليها، والحق وسط بين الغالي فيه والجاافي عنه، وما عليه المسلمون المؤمنون من أهل السنة والجماعة هو المنهج الوسط الحق.

وفي السنة المطهرة عشرات الأحاديث التي تتناول الرؤى، وتظهر العناية بها، فمن ذلك أن النبي ﷺ كان يسأل أصحابه: «من رأى منكم رؤيا...»^(٢)، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقترب الزمان

(١) انظرها في الأصل «آيات للسائلين»، ص ٦٧-٦٨، وفيه ذكر السبب في ترك عدّ الرؤية التي في الإسراء.

(٢) كما في «صحيح البخاري» من حديث سمرة بن جندب ١/٤٦٥ (١٣٢٠)، ومسلم من حديث ابن عباس ٤/١٧٧٧ (٢٢٦٩).

لم تكذب رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل، ولا يحدث بها أحداً^(١).

وهذا الحديث أصل عظيم في موضوع الرؤيا، وإثباتها، وأنواعها، وأقسامها، وكيف نتعامل معها.

أما المنهج الشرعي في التعامل مع الرؤى، فيعتمد على الرؤيا، وهي ثلاثة أنواع كما مرَّ في حديث أبي هريرة:

* الرؤيا الصالحة: لا تحدث بها إلا من تحب، وذلك لأسباب منها: منع التحاسد وما ينتج عنه من تدابر.

* حديث النفس: ومن علاماته أن يفكر المرء في أمر ما، ثم يرى في نومه ما يتعلق به، والموقف منه الإعراض عنه وعدم الانشغال به.

* رؤية ما يُحزن: وهذا من تهاويل الشيطان، وعلى الرائي:

أولاً: يتعوذ بالله من شر ما رأى ومن شر الشيطان.

ثانياً: ينفث عن يساره ثلاثاً.

ثالثاً: ينقلب على جنبه الآخر.

رابعاً: يقوم فيتوضأ ثم يصلي ما شاء الله.

خامساً: لا يحدث بها أحداً.

ومن عمل بهذا فلن تضره - بإذن الله تعالى - ومن لم يتمكن من عمل هذه الخمس، فليعمل بعضها، كأن ينقلب على جنبه، وأن يستعيذ بالله من شرها ومن شر

(١) رواه مسلم ١٧٧٣/٤ (٢٢٦٣).

الشیطان، والمهم ألا یُحدّث بها أحدًا، فإنه یُخشی إذا حدّث بها أن یشکک فیها أثر، فقد ورد فی حدیث أبی رزین: «أن الرؤیا علی رجل طائر، فإذا عبّرت وقعت»^(١).

یقول أبو سلمة رحمته الله كما فی «الصحیح»: كنت أرى الرؤیا فتمرضنی. قال: حتی سمعت أبا قتادة یقول: وأنا كنت أرى الرؤیا تمرضنی؛ حتی سمعت النبی صلی الله علیه وسلم یقول: «الرؤیا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدکم ما یحب فلا یحدّث به إلا من یحب، وإذا رأى ما یمکره، فلیتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشیطان، ولیتفل ثلاثًا، ولا یحدّث بها أحدًا، فإنها لن تضره»^(٢).

إضاءات فی الرؤی:

لا بد من مراعاة بعض الضوابط والمحاذیر سواء عند رواية الرؤیا، أو طلب المعبر لها، أو تعبیرها، وفیما یلی تفصیلها:

أولاً: بالنسبة لقاصّ الرؤیا:

١ - عدم اختلاق الرؤی لإضحاك الناس أو لفت الأنظار، فإن النبی صلی الله علیه وسلم یقول: «من تحلّم بحلم لم یره، کلف أن یعقد بین شعیرتین ولن یفعل»^(٣). كذلك الزیادة فی ما رأى بغرض تهویل الأمر أو غیر ذلك یدخل فی هذا الباب.

(١) رواه الترمذی فی «سننه» ٥٣٦/٤ (٢٢٧٨-٢٢٧٩)، وقال: حسن صحیح، ورواه كذلك أبو داود ٧٢٣/٢ (٥٠٢٠) وسکت عنه، وابن ماجه ١٢٨٨/٢ (٣٩١٤)، والدارمی ١٦٩/٢ (٢١٤٨)، والحدیث فی «مسند أحمد» ١٠/٤-١٤، و«صحیح ابن حبان» ٤١٣-٤١٥ (٦٠٤٩) وما بعده، و«مستدرک الحاکم» ٤/٤٣٢ (٨١٧٥) ووافقه الذهبی علی تصحیحه، ورواه جمع غیرهم، وصحّحه جم غفیر من المتقدمین والمتأخرین.

(٢) متفق علیه، رواه البخاری ٢٥٨٢/٦ (٦٦٣٧)، ومسلم ١٧٧١/٤ (٢٢٦١).

(٣) رواه البخاری ٢٥٨١/٦ رقم ٦٦٣٥.

٢- أن يعلم أنها قد تصيب وقد تحيب، وذلك لورود الاحتمال؛ ولهذا أوجّه تبيينه منها:
أولاً: احتمال عدم دقة رواية من رآها دون تعمد للكذب فيزيد أو ينقص،
وقد ينسى وقد يتوهم، والمعبر يعبر حسب ما رُوي له، وهنا قد يقع الخطأ، وإن
كان المعبر حاذقاً.

ثانياً: قد يكون ما رُوي من حديث النفس أو وسواس الشيطان فاختلط
الأمر على الرائي.

ثالثاً: قد تكون الرؤيا صالحة، والرائي صادق دقيق في روايته، ولكن المعبر
ليس من أهل الحذق في التعبير أو ليس من أهل التعبير.

رابعاً: قد يكون المعبر من المعبرين الحذاق، ولكنه أخطأ في تعبير الرؤيا.
والدليل على ذلك أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه، عندما عبر الرؤيا وسأل النبي
ﷺ قال له النبي ﷺ: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»^(١).

خامساً: قد يكون التعبير صحيحاً، ولكن الخطأ في التنزيل على الواقع، وقد
وقع بعض الصحابة رضي الله عنهم في هذا في رؤيا الفتح، فظنوا أنهم سيدخلون
مكة في عام الحديبية، ثم اتضح لهم أنه لم يكن في ذلك العام، وإنما تحققت الرؤيا
في عام بعده.

٣- عدم استعجال وقوع الرؤيا، فقد تقع بعد مدة تطول أو تقصر، ورؤيا يوسف
ﷺ ما تحققت إلا بعد أمد بعيد، قدّره بعض المفسرين بأربعين سنة، وقيل
أقل من ذلك وهو أقرب.

٤- عدم عرض الرؤى إلا على من يجب وكذلك أهل التقى والصلاح والرأي
الذين يلتبس عندهم تأويلها، دون غير هؤلاء ممن لا يعلم ما يكون له،

(١) رواه البخاري ٦/٢٥٨٢ (٦٦٣٩).

فضلاً عن الدجالين والمشعوذين الذين يستعينون بالشياطين في التأويل.

٥- على الرائي أن يعلم أن الرؤيا ليست من مصادر التشريع أو التلقي فلا تستحدث بها بدع، ولا تشرع بها أحكام؛ لأن الدين قد كمل، يقول تعالى:
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

٦- ومما ينبغي أن يعلمه الرائي أن رؤيا النبي ﷺ في المنام حق، وتلك بشارة للرائي، فقد جاء في حديث أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة أو لكانها رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي»^(١). ولكن ليس كل من ادعى أنه رأى رسول الله ﷺ يكون مصيباً وإن كان صادقاً، فقد يغرر به الشيطان، فيتمثل بغير صورة النبي ﷺ لأنه لا يستطيع أن يتمثل بصورته ﷺ ثم يزعم أنه النبي، ومن لا يعرف صفات النبي ﷺ تنطلي عليه الحيلة.

٧- ومما ينبغي أن يعلمه الرائي أيضاً أن أغلب الرؤى الصالحة تكون واضحة قصيرة جليلة، كالرؤى التي في سورة يوسف: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] تعبيرها: أحد عشر أخاً، والشمس والقمر أبوه وأمه، وهذا ما حدث، أما أن تتحول الرؤى إلى ألغاز وأسرار، ومسلسلات وحلقات، ففي النفس من صحة كونها رؤى شيء.

٨- وأخيراً: لا مجال لمراجعة المعبر إذا عبر الرؤيا بخلاف الفتوى؛ لأن التعبير جله إلهام والاجتهاد فيه قليل، والمعبر لا يملك أن يغير التعبير، ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]، أما الفتوى فقد يُراجع فيها المستفتى إذا تبين أن المسألة لم تتضح له بشكل كاف، فيتغير الحكم تبعاً لذلك، والله أعلم.

ثانياً: بالنسبة للمعبرين:

(١) رواه مسلم ٤/ ١٧٧٥ (٢٢٦٦).

- ١- عدم جعل تعبير الرؤى شغلًا شاغلًا، وكذلك عدم الإعراض عنه بالكلية، بل لابد من الاعتدال واستخدام مثل هذه الهبة الإلهية في الدعوة إلى الله تعالى كما كان يفعل يوسف عليه السلام.
- ٢- ألا يعبر للمسلم ما يحزنه إلا إذا كان في ذلك مصلحة راجحة، على أن يوجهه التوجيه المناسب.
- ٣- تعبير بعض الرؤى قد يكشف بعض الأسرار المتعلقة بالرائي، فلا يجوز للمعبر أن يحدث بها أحدًا إلا لمصلحة راجحة.
- ٤- هناك تلازم بين الرؤيا وتعبيرها وصاحبها، فتعبر بحسب حاله.
- ٥- التعبير باب من أبواب الفتنة؛ فليحذر المعبرون من استغلال ثقة الناس بهم فيسألونهم عن أسرار بيوتهم دون حاجة لذلك.
- ٦- تجنب التعبير في الإذاعات والصحف والإنترنت وسائر وسائل الإعلام؛ لما في ذلك من مفاصد ظاهرة.
- ٧- عدم الاستعجال في تنزيل الرؤى على الواقع.



دروس تربوية

* يوسف عليه السلام يرى رؤيا فيبادر بقصها على أبيه ولا يتردد ﴿يَتَأَبَّىٰ إِنِّي﴾ المرجعية الأبوية والعلاقة الحميمة بينهما. ﴿رَأَيْتُ﴾ الآية، وهذا يشير إلى طبيعة العلاقة الحميمة بينهما.

* فأولاهها الأب النبي - وحسبك بالنبوة شغلاً - ما تستحقه من الاهتمام، التفاعل مع هموم الصغير ﴿قَالَ يَبْنِي لَكَ نَقْصُصَ رُءُيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا هو أهملها كما يفعل الكثيرون، ولا هو بالغ في الاهتمام بها والتحذير من عواقبها.

* وفي تأكيد يعقوب على يوسف عليهما السلام على عدم قص الرؤيا على ليس كل حق إخوته مصداق لما روي عن نبينا ﷺ وصححه بعض أهل العلم^(١): «استعينوا تجدر إذاعته في كل وقت على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»، وإذا كان هذا قد يقع بين الإخوان، فوقعه مع العامة أخرى، ومراعاته إذن أولى، ولا سيما إذا كانت الرؤيا متعلقة بآخرين حاضرين، والبعد عن أسباب الشر مطلوب، ولو بكتمان ما لا بأس فيه إن خشيت مضرته، وليس كل حق يصح أن يذاع ويعلن. وحري بنا أن نراعي أموراً ربما كانت أجلاً شأنًا من الرؤى.

* تلحظ في الآية أمرين: أن النهي جاء معللاً، وأن التعليل تعليل حكيم، لتعليل النهي وهنا إشارة لواجب الآباء في السيطرة على مشاعر أبنائهم بحسن التوجيه؛ لئلا للصغير بحيث ينشأ بينهم التباغض والتحاسد، وتوجيه إلى أهمية النهي المعلن، وتوجيه إلى أن تظهر له الحكمة منه تكون العلة علة حقيقية من الحكمة أن تقال.

(١) ينظر «السلسلة الصحيحة» للعلامة الألباني ٤٣٦/٣ (١٤٥٣).

إن النمط الجبري في التربية: افعل «وبس»! لم يكن يعرفه أعظم المرين رحمته الله ، هاهو ذا يوجه ابن عباس بكلمات تلحظ الشبه بينها وبين كلمات يعقوب عليهما السلام هذه فيقول: «يا غلام، إني أعلمك كلمات...»^(١)، وينهى الآخر الذي طاشت يده في الصحيفة بأسلوب أكثر بلاغة وإبداعاً، فيقول: «يا غلام! سم الله، وكُلْ بيمينك، وكل مما يليك»^(٢)، فيالله أي معلم هذا! فلا غرو أن يقول ذلك الغلام بعد أن غدا شيخاً: «فما زالت تلك طعمتي بعد»^(٣)!

التوجيه بندا
يدعو للقبول

* استرعى يعقوب سمع ابنه يوسف عليهما السلام بعبرة حانية محبة يقول فيها: (يا بُنَيَّ) وقرأها شعبة رحمته الله (يا بُنَيَّ) بالترخيم الذي يزيد من حنوِّها ويضاعف وقعها في نفس الابن. وفرق بين أن تجذب انتباه من تريد توجيهه بعبرة تلفت انتباهه نحو ما تقول فيلتفت إليك بوجهه وعقله، وبين أن تجذب انتباهه بعبرة زاجرة تجعل جل همهم التفكير فيما يخلصه من الصراخ أو الزجر أو التوبيخ، فيترك ما نهى عنه للحظة، ثم يعود بعد مدة؛ لأنه ما تنبه إلى الحِكم والأسباب، وإنما كان همهم التخلص من العبارة المرعدة المرعبة: يا ولدا! أو يا...!

وأنت تلحظ في هذا الأسلوب أمرين:

الأول: التصغير الدال على الشفقة والعناية وربما التعظيم، فالنداء بـ(يا بني) مشعر بنوع شفقة وحرص أبوي يناسب مقام النهي والتحذير، والسامع للعبارة يستشف منها معنى: أنت مني، ولذا أشفق عليك فلا تفعل.

والأمر الثاني: نسبته عليه السلام الابن إلى نفسه، وفي ذلك تنبيه الابن إلى معاني

(١) القرطبي: ٦/ ٣٩٨. الترمذي ح (٢٥١٦)،

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٣)، ومسلم (٢٠٢٢).

(٣) ينظر: صحيح البخاري (٥٣٧٣).

الأبوة في الكلام المقبل على تلقيه، فهو يعلم أن ما سيأتي بعدها أمر أبوي نابع عن قلب أب يفيض حبًا لخير أبنائه، فلذات أكبادهم، ويكره كل ما يسوؤهم، وطاعة مثل هذا الأمر أقرب من عصيانه.

* قول يعقوب: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيه دليل على فطنته إلى تصرفات فطنة المربي وسلوك بنيه، فلم يكن يعقوب عليه السلام سيئ الظن، ولكنها فراسة المؤمن ومن إلى سلوك المترين أسبابها يقظته وفطنته، فهو يعلم أحوال أبنائه من حوله، ويستشف من تصرفاتهم شيئًا ربما وُجد في نفوسهم، ويعمل جاهدًا على ألا يستفحل الأمر فيخرج إلى نطاق لا يمكن تداركه، فتراه يقطع كل سبيل ربما قاد إلى تفاقمه.

* وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فيه استثمار المواطن المناسبة استثمار الفرص لبيان العدو الحقيقي، وتوطيد بغضه، وعبر بالمصدر (عدو) فهو عدو بغض النظر عن الزمان أو المكان، وليست عداوته عداوة خفية، بل هي عداوة بينة جليلة. التشاغل

* ثم أراد يعقوب أن يخرج ابنه مما أسميه بالاستغراق في اللحظة الحاضرة بأصحاب العوارض الزائلة إلى ما ينتظره من مستقبل مشرق، فقال له: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦]. هل يُتصور بعد ذلك أن يجلس يوسف عليه السلام يفكر في مكيدة إخوته أو ينتقل بفكره إلى هذا الخير المقبل عليه من اجتناء الله جلَّ وعلا له وإتمام المنع من الاستغراق في اللحظة الحاضرة نعمته عليه؟ فإذا رأيت إنسانًا شغله هم، أو ملأ صدره غم، فذكره بأن الله قريب لطيف مجيب، وقل له:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفًا
وأول مفروح به آخر الحزن
خزائنه بعد الخلاص من السجن

بث الأمل في
النفوس المكروبة

ونبينا ﷺ كان يسلك هذا المسلك التربوي المهم؛ ففي الحديبية اشتد الأمر
على الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- فلما رأوا سهيل بن عمرو قادمًا قال لهم
ﷺ: «قد سهّل لكم من أمركم»^(١).

وفي الخندق لما زافت أبصار الأصحاب من شدة الكرب، وبلغت قلوبهم
الحناجر، وزلزلوا زلزالًا شديدًا كما وصفهم العليم الخبير في القرآن الكريم،
في تلك الحال والعدو من فوقهم ومن أسفل منهم يضرب النبي ﷺ الصخرة
الصلدة التي كسرت حديدتهم واستعصت عليهم ويكبر تكبير فتح ثم يبشرهم
بالظهور على كل القوى العالمية في ذلك الوقت: فارس والروم^(٢).

ومن المقرر المعلوم أن النبي ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، ولم يكن يبشر
الناس إلا بوحى يوحى. وليس مطلوبًا منا اليوم أن نرجم بالغيب ولا أن نبشر
الناس بما لا علم لنا به، بل إن ذلك من جملة التخدير والتخذيل بالميل إلى الطرف
الآخر، لكن المطلوب أن نبشر الناس بما ورد في السنة الصحيحة، والأخبار الثابتة
التي ضعف إيمان بعض الناس بها، وكثير من الأمور يمكن التنبؤ بها -على تغليب
الظن- من خلال قراءة الأحداث، فلنبشر الناس وحالنا ينطق باليقين بنصر الله ما
نصرناه، كما أيقن محمد ﷺ.

من الفروق
بين بث
روح التفاؤل
والتخدير
بالأوهام غير
الواقعية

* يعقوب عيسى، كان يحترم عقول أبنائه فوجه هذا الخطاب لأحدهم
بأسلوب فيه تقدير ظاهر لشخصه، وهنا قضية مهمة تتعلق بنظرة بعض الناس
إلى الأطفال: إن كثيرًا من الفضلاء بلة عامة الناس يظنون أن الأطفال لا يفهمون
فيعاملونهم بناء على هذا الظن الآثم، مع أنهم يعلمون من حوادث واقعهم أن

احترام عقول
الأطفال
وشخصياتهم

(١) كما في البخاري ٩٧٤/٢ (٢٥٨١)، وينظر «الفتح» ٤٠٤/٥.

(٢) ينظر: الطبري ١٣٤/٢١، وهو في مسند أحمد ٣٠٣/٤، وينظر دلائل النبوة للبيهقي ٤٢١/٣.

الواحد منهم قد يصف حدثاً وقع وهو ابن ثلاث سنين بتفاصيله، بينما إذا كبر فربما عجز عن تذكر ما حدث له بالأمس.

وهكذا كان نبينا الكريم ﷺ، كان يكرم الأطفال ويقدر إمكاناتهم، فكان منهج النبي ﷺ في إكرام الأطفال وتقديرهم^(١)، ويؤاكل بعضهم^(٢)، ويسلم إن مر عليهم^(٣)، ويواسي بعضهم لما مات عصفوره^(٤)، ويردف بعضهم^(٥)، بل يستأذن أحد الغلمان وكان يجلس عن يمينه في سقيا الأشياخ^(٦)، فلما لم يؤثرهم على نفسه أعطاه القدح مباشرة؛ لأنه لم يستأذنه استئذاناً بارداً من قبيل المراسيم العصرية، أو الإجراءات الدورية (الروتينية) وإنما استأذنه؛ لأنه يعلم أنه صاحب الحق في إثثار غيره أو عدم إثثارهم حتى ولو كان المستأذن رسول الله ﷺ، ولو كان هؤلاء هم أشياخ الصحابة رضي الله عنهم، وليعلم الناس كذلك كيف يعامل الصغار، ثم هب أن هذا لم يحدث في المجلس فإن في مجرد جلوس الغلام إلى جانب رسول الله ﷺ في مجلس فيه أشياخ الصحابة أمر حري الوقوف عنده، والتأمل فيه.

* الشاهد أننا نخطئ في تقييمنا للأطفال، فلا نعاملهم معاملة تناسب عقولهم، بل يشعرهم البعض بأنهم لا وزن لهم، فتكون النتيجة تخريب نوعين من الشباب: شباب يعاني من هزيمة نفسية، يستصغر نفسه ويقلل من شأنها ويقيّد

(١) حديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير»، البخاري ٥/ ٢٢٧٠ (٥٧٧٨).

(٢) حديث: «يا غلام سمّ الله»، البخاري ٥/ ٢٠٥٦ (٥٠٦١).

(٣) ينظر «صحيح البخاري» ٥/ ٢٣٠٦ (٥٨٩٣)، ومسلم ٤/ ١٧٠٨ (٢١٦٨).

(٤) حديث أبي عمير السابق.

(٥) «المستدرک علی الصحيحین» ٣/ ٦٢٣ (٦٣٠٣).

(٦) البخاري ٢/ ٨٣٤ (٢٢٣٧).

الثمرة المرة
لإهمال تقدير
الأطفال

نفسه بحبال وهمية نسجها المجتمع من حوله، وشباب آخر متهور يحاول أن يتفلسف من كل قيد ليثبت أنه رجل ولو بكل سبيل منحرف!

وبالمقابل من يقدر عقول أطفاله ويحترم قدراتهم ويخاطبهم خطاب الكبار فما أسرعهم إلى فهم كلامه والتزام توجيهه والتهيؤ لحمل المسؤولية في عمر الشباب، ومثل من حظوا بهذا المنهج في التربية قل أن تظهر فيهم أعراض الطفولة المتأخرة التي نشهدها في كثير من رجال عصرنا!

* نلاحظ كذلك تنبيه يعقوب لابنه يوسف -عليهما السلام- للأخذ بالأسباب، فعدم رواية الرؤيا لإخوته مانع من أزر الشيطان لهم فيكيدوا له، وبقية أحداث القصة تبين أن تربية يعقوب عليه السلام قد آتت أكلها، فابنه قد أخذ بالأسباب في كل ما مر به من مواقف كما سنرى بإذن الله تعالى.

التربية على
الأخذ
بالأسباب مع
الحذر

* ومن فوائد يعقوب عليه السلام التربوية حرصه على تربية ابنه على رد الفضل لأهله، فقال له: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] فالله هو الذي اجتباها، وهو الذي اصطفاه، وتلك نعمة من أعظم النعم تدفع حلاوتها كل سوء جاء به ابتلاء، وقد روي عنه عليه السلام أنه قال عندما أصابه الهم المقيم المقعد: «إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي...»^(١).

التربية على
الاعتراف
بالآلاء
لمؤليها

* ومنها حرصه على ربط ابنه بآبائه الصالحين، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، والمعروف أن عمق الإحساس بالانتماء لمجتمع معين هو من دوافع الالتزام بعرف

(١) أثر مشهور ضعفه بعض أهل العلم، ينظر «السلسلة الضعيفة» للألباني ٤٨٦/٦ (٢٩٣٣).

توثيق الصلة
بين الابن
وبين آبائه
الصالحين

ذلك المجتمع، ويبدو أن هذا الأسلوب كان من ديدن يعقوب عليه السلام مع كل أبنائه؛ ولذا لما حضرته الوفاة وسأل أبنائه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فأكدوا التزامهم بالسير في طريق هؤلاء الآباء الصالحين، الذين طالما حثهم على اقتفاء أثرهم، وتوطين مواطن أقدامهم.

أثر تعريف
الطفل بأسماء
الله وصفاته

* ومن الفوائد التربوية قول يعقوب عليه السلام لابنه بعد أن بين له فضل الله عليه باصطفائه له، وتعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]، وفي هذا تعريف له ببعض أسماء الله تعالى وصفاته. وعندما تستقر هذه المعاني في نفس الصغير، فإنه سيتذكر عند كل ابتلاء أن الله تعالى الذي أحبه فاصطفاه هو الأعلم والأحكم، وأن ما يمسّه من بلاء إنما هو بعلمه وحكمته تعالى، فتطمئن نفسه ولا يلتجئ لغير العليم الحكيم.

تنمية الشعور
بالمسؤولية
عن طريق
التذكير
بتعدي أثر
العمل

* ومن الفوائد التربوية تنشئة الأولاد على أن إساءة أحدهم قد لا تضره وحده بل قد تتعداه إلى بقية جسد الأسرة، كما أن إحسانه كذلك، فمن نزلت به النعمة تعدى أثرها لآله وذويه، وكذلك من حلت به النقمة؛ ولهذا قال: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦]، وقد تمت النعمة ليوسف عليه السلام فتعدى أثرها آل يعقوب جميعاً، كما أن البلاء الذي نزل به تعدى أثره لذويه. وهذا التوجيه يشعر الطفل بالمسؤولية وينشئه على تحملها.



نتائج المقدمات الفاسدة



المقدمات

الفاسدة تؤدي

إلى نتائج

فاسدة

* المقدمات الفاسدة تؤدي إلى نتائج فاسدة، فإخوة يوسف افترضوا أن أباهم في ضلال مبين، وأنه يجب أخاهم أكثر منهم رغم أنهم عصبية، ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ثم تصرفوا بناء على هذا التصور ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، ولو فرضنا جدلاً خطأ يعقوب عليه السلام في حبه لأحد أبنائه حباً يفوق حبه للآخرين، لم يكن ذلك ذنباً للمحسوب أو مسوغاً لعقوبته، والنتيجة أنهم ندموا ندماً عظيماً، فلم يخل لهم وجه أبيهم كما افترضوا، ودفَعوا نتيجة فعلتهم، والله... لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿[يونس: ٨١].

خطورة الحسد

والحذر منه

* لقد أساءوا الظن فداخلهم شيء من الحسد ذلك الداء العضال القتال، فالحسد نكد في الدنيا وخسارة في الآخرة؛ ولذا جاء النهي عنه صريحاً واضحاً: «ولا تحاسدوا»^(١)، بل قال ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد»^(٢)، وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا

(١) متفق عليه من حديث أنس، البخاري ٢٢٥٣/٥ (٥٧١٨)، ومسلم ١٩٨٢/٤ (٢٥٥٨)، وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أيضاً.

(٢) رواه النسائي في «سننه» من حديث أبي هريرة ١٢/٦ (٣١٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» ٤٦٦/١٠ (٤٦٠٦)، ورواه غيرهم، وحسنه غير واحد من أهل العلم.

أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم، أفشوا السلام بينكم»^(١).

* لا جناح على المرء أن يحب أحد أبنائه أو إحدى زوجاته حباً يفوق حبه لبقية أبنائه أو زوجاته ما لم يتسبب هذا الحب في ظلم الباقين. ويعقوب عليه السلام لم يظلم بقية أبنائه، وحاشاه، وهنا يحسن التنبيه إلى مسألة مهمة: إذا أحب أحد أبناءه حباً خاصاً، فعليه أن يركز على أن سبب الحب هو الصفة التي تحلّى بها هذا الابن لا شخصه؛ حتى يتنافس الأبناء في تحقيق هذه الصفة، كأن يكون باراً بوالديه، أو فيه صلاح أو تفوق أو غير ذلك، ومثل هذا الكلام يمكن أن يقال كذلك عند تعدد الزوجات، مع الحرص على العدل لوجوبه.

ولكن على الآباء مراعاة مشاعرهم فلا يظهروا حباً جمّاً زائداً لأحد الأبناء دون البقية، فإن الإخلال بذلك ولو عن غير قصد ربما ولد إحناً ونجمت عنه عداوات، والصغار يلحظون من ذلك ما لا يلحظه الكبار، فلا تعزب عنهم البسمة، ولا تغيّب النظرة، ولا يُغفلون الكلمة، فضلاً عن المداعبة والقبلة.

* وفي قوله تعالى خبراً عن إخوة يوسف: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، خداع النفس بأذنب وأتوب
بيان أن إخوة يوسف قد علموا أن ما عزموا على فعله ذنب، وأنهم قد عقدوا العزم على التوبة منه بعد، فلم يكن ذلك مُسَوِّغاً لفعلهم، فمن يقول: أعمل المعصية ثم أتوب، فقد أخطأ، وما يدرية أيعيش حتى يتوب أم تقبض روحه وهو على معصيته، وما يدرية هل ييسر الله له أسباب التوبة وقبولها أو لا؟



(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» ١٦٤/١ (١٤١٢)، ١٦٧/١ (١٤٣٠)، والترمذي في «سننه» ٦٦٤/٤ (٢٥١٠)، وكذلك الطيالسي في «مسنده» ٢٧/١ (١٩٣)، وأبو يعلى ٣٢/٢ (٦٦٩)، ورواه غيرهم وقد حسنه بعض أهل العلم.

المقدمات الفاسدة توقع في جملة أخطاء



* كان المقترح الأول التخلص من الأخ بالقتل، أو بالطرح في أرض فلاة، ثم: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فما اقترحه هذا الأخ يشعر بفضله عليهم، ولا يرفع عنه نصيبه من الدم، فقال ما حاصله: إذا كنتم تريدون أن يخلو لكم وجه أبيكم، فلا يلزم أن تقتلوه ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فهو معهم في أصل المسألة مخالف لهم في وسيلتها، وذلك لا يرفع عنه الدم مطلقاً.

* ومن المعاصي التي وقعوا فيها بسبب مقدمتهم الفاسدة قولهم الذي قصه الله تعالى: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، وفي هذا دليل على إصرارهم وإجماعهم الأمر على جعله في غيابة الجب، وتلك معصية تضمنت العزم على قصد السوء، والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية النبي.

من شؤم
الذنب تتابع
الذنوب بعده

ثم لما شرعوا في تنفيذ المؤامرة عمدوا إلى وسيلة محرمة وهي الحيلة غير المشروعة، وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ ليس كذباً مجرداً منهم، بل هو مبالغة في الكذب، وأكدوه بعد ذلك بمثله فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾، وجعلوا بينهما كذباً آخر وهو قولهم: ﴿يَرْتَع وَيَلْعَبُ﴾ وإنما هو: يؤخذ ويلقى.

ثم قالوا: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ فلو صح هذا

لكانت مخالفة لما نهاهم عنه أبوهم، ثم رتبوا على هذا الكذب كذباً آخر فقالوا: ﴿فَاَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾، افتراء حتى على الحيوان! وكذب بعده وهو قولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ فهذا حاصله: وإنا لصادقون، فهو نوع من تأكيد دعواهم.

ثم كذب آخر ذكره الله تعالى فقال: ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِهِ يَدْمِرُ كَذِبٍ﴾، أي: مكذوب، ثم ذنب آخر، وهو ما اختلج في نفس يعقوب من ألم الحزن، المستوجب للصبر، وقد صرح بلازمه فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، وقد ضرب به المثل فصار يقال: حزن كحزن يعقوب. فكل هذه ذنوب جر إليها سوء الظن المنبني على مقدمات فاسدة، ولعل هذه من النكت في جمعهم الذنوب بعد: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

فالحذر الحذر من شؤم الذنب، والبدار البدار بالتوبة منه، وإلا فإن الذنب الواحد قد يستتبع أرسالاً من الذنوب ولا يقولن أحد: أذنبُ وأتوب.

* ومن الفوائد في قوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، وقد ثبت بأدلة شرعنا جواز اللعب المباح الخالي من المحرمات. أما كثير من الألعاب الموجودة اليوم وما يصاحبها من محرمات واختلاط، أو من ميسر وأشباه الميسر، من الأمور التي تربي الصغار على الميسر والقمار، فهذه لا تجوز. كما أن بعض الألعاب الحاسوبية^(١) تزرع في عقول الأبناء عقائد باطلة مثل تناسخ الأرواح، وتعودهم على رؤية المناظر الخليعة، وتربيههم على الكسل والتعدي على الآخرين؛ لأن أبطال الألعاب يصلون إلى أهدافهم

(١) ما يسمى (Play Station) أي: محطة اللعب... وغيره.

عن طريق قدراتهم الخارقة دون بذل أي مجهود، وهي كذلك لص من لصوص الوقت المهرة، وكل سبب من هذه الأسباب ينبغي أن يكفي لدفع الآباء للتفكير مراراً قبل أن يشتروها لأبنائهم الذين استرعاهم الله إياهم، ولا شك أن التفريط في مثل هذا غش للرعية، وفي الحديث: «لا يسترعي الله عبداً رعية يموت حين يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه الجنة»^(١).

الصبر
الجميل على
الأبناء

* ومن الفوائد تلك الكلمة العظيمة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] التي كانت شعاراً ليعقوب عليه السلام، فلما فقد ابنه يوسف عليه السلام، قالها، ولما فقد اثنين آخرين من أبنائه ما زاد عليها. لقد كان يعلم أن أنفُس أبنائه قد سَوّلت لهم أمراً، ومع ذلك لم تستغرقه اللحظة الحاضرة، فلم يشتمهم، أو يضرهم، أو يطردهم، بل صبر عليهم، واستعان بالله تعالى في معالجة الموقف وحل المشكلة وهو نعم المعين.

وهذا الموقف يجب أن يستحضره الآباء الذين يستعجلون في تشديد العقوبة على أبنائهم وطردهم لوقوعهم في خطأ ما، فيتلفهم أصحاب السوء، والنتيجة انحراف الأبناء ووقوعهم في جرائم ربما ما كانت لتخطر على بال أحدهم لو بقي في بيت أبيه، يحوطه برعايته، ويسدده بتوجيهه.



(١) البخاري ٦/ ٢٦١٤ (٦٧٣٢)، ومسلم ١/ ١٢٥ (١٤٢) و٣/ ١٤٦٠.

من البئر إلى القصر

* من فضل الله على يوسف عليه السلام أن الذي اشتراه هو عزيز مصر، فلم يشتره بتابع فضل رجل يهينه ويذله ويستخدمه ويتذله للكسب ولم يجعله خادماً في البيت، بل أوصى به زوجته خيراً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾.

* على نقيض العزيز الذي حباه الله فراسة توّسم بها في يوسف النفع، كان أولئك الذين أخرجوه من البئر وباعوه بأبخس الأثمان.

ويحسن في هذا المقام تنبيه الآباء والمربين على أهمية التعرف على النجباء والتميزين من أبنائهم وتلاميذهم، بل على معرفة صفات وقدرات كل واحد منهم، فيعاملونهم بما يناسب حالهم دون محاباة لهم، أو ظلم لغيرهم، فربما يكون منهم قائد، أو مجدد، أو عالم. وقد كان عمر يدعو ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لِمَا يدعو له أهل بدر؛ لأنه توّسم فيه النجابة مع أن سنّه دونهم.

* ولا يزال لطف الله بعبده يتتابع فقال سبحانه واصفاً ما بلغه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، والتمكين نوعان: تمكين خاص، وتمكين عام، وليتحصّل ليوسف عليه السلام مكنه الله تعالى في أول الأمر من قلب العزيز، وفي الآية إشارة إلى أن دخوله بيت العزيز وما لقيه فيه من إكرام كان مبدأ تمكينه في أرض مصر، والتمكين العام بالولاية العامة عندما قال الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ قال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ... ﴿[يوسف: ٥٤-٥٦]، فأصبح هو عزيز مصر الأمر الناهي.

أهمية الثقة
بالله وحسن
الظن به

* ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا هو سر
المسألة، أفلا يثق بالتيسير والتفريع، أفلا يثق بالتمكين والتأييد، من كان هواه تبعاً
لمراد الله الغالب على أمره، اللطيف بعباده، الناصر لأوليائه؟

إننا بحاجة لاستحضار هذه المعاني لنطرد اليأس والتشاؤم من القلوب
بعدما تكاثرت جراحات الأمة. لقد تعرضت أمة الإسلام على مدار التاريخ لكيد
الأعداء، وكان سبيل النصر في كل مرة من تلك المرات الاستمسك بحبل الله،
والثقة بوعد الله، والتوكل على الله، والأخذ بأسباب الانتصار، وهذا هو السبيل
الوحيد لأمتنا اليوم إن أرادت التغلب على عدوها، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ
اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].



قصة العفة



* قصص القرآن تعالج ما يعايشه الناس وتذكر بأخبار من غبر حتى يأخذ من حضر العبر، فلا بأس إذا من سرد أضرب قصة امرأة العزيز ولكن بمنهج القرآن، دون بذاء أو تفصيل ودون تعرض لِمَا لا طائل من ورائه، ولا فائدة من ذكره، إلا عند ذوي النفوس المريضة بفتن الشهوات، التي يطربها سماع القذع والفحش وأخبار التهلك والمجون وتعدي الحدود والحرمان.

* قال الله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأُبُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وما يلحظ هنا ابتدار المرأة المراودة التي: هي المطالبة برفق، وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم مما ينبغي أن تكون عليه امرأة العزيز، إلا أن يوسف استعصم مع داعي النفس والهوى، وحري بمثل هذا أن يبدله الله خيرًا مما تركه له، وحري بغيره إذا دعاه داعي الهوى أو النفس والشیطان أن يتذكر موقفه عليه.

* ثم قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، وما يحسن التنبيه إليه في هذا الموضع هو ما انساق إليه بعض المفسرين من سوق أساطير بني إسرائيل في تفسير هذه الآيات وبيان تفاصيل أحداث ما عاصروها، بل لو عاصروها ما شهدوها، وزعموا أن يوسف عليه السلام كاد أن يقع في المنكر لولا أن رأى برهان ربه، وكثير مما قالوه يرى مردودة ظاهرة الرد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، والفحشاء الوقوع في

الفاحشة، والسوء دون ذلك، والله تعالى صرّفها عنه. وقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ
النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي...﴾ [يوسف: ٥٣]، فمن كلام امرأة العزيز كما
يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن.

ولأن الله وصفه بالإحسان والإخلاص، والذي يعبد الله كأنه يراه لا يقع
فيما ذكره، كما أنه ما من نبي ذكر له ذنب في القرآن إلا وذكر استغفاره، ويوسف
عليه السلام لم يذكر في القرآن أنه استغفر من ذنب، وهذا دليل على أنه همّ بقلبه دون
فعل إذ عناية الله سبقت فرأى برهان ربه، وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه
فصرّفه الله به عما كان هم به، وهو غير مؤاخذ بذلك.

* يُسْتَشْفَى مما جاء في القصة أن البيّنة التي عاش فيها يوسف عليه السلام في بيت
العزيز كان فيها من الميوعة والانحلال ما يجعل الرجل يرى امرأته تلاحق فتى في
بيته ثم لا يفعل شيئاً غير تقرير أنها مخطئة، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي
لِذُنُوكَ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، ويجعل المرأة تحجر بمثل هذه الفعلة بل
وتكررها في الملام.

* ومن وسائل العفة التي تزرعها هذه الآيات في النفوس تعظيم خطر الخلوة
والخلطة بالنساء الأجنبية، فانظر إلى أي مدى بلغ الحد بامرأة العزيز؟ وصدق
من قال: إن الخلوة خطر يجب اتقاؤه؛ لأنها دعوة للشيطان وسبيل للغواية، قال
النبي ﷺ: «أَلَا لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بامرأة إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ»^(١).

خطر الخلوة
والاختلاط
بالنساء

(١) «المستدرك على الصحيحين» ١/ ١٩٧ (٣٨٧)، وهو في «صحيح ابن حبان» ١٠/ ٤٣٦
(٤٥٧٦)، وغير موضع، والحديث رواه جماعة، قال ابن كثير: له طرق أخرى، وهو حديث
مشهور جداً [إرشاد الفقيه ٢/ ٤٠١]، وصحح ابن حجر إسناده في «هداية الرواة»
٥/ ٣٨٨، وقد صححه جمع من أهل العلم، وكذا الألباني، انظر «السلسلة الصحيحة»
١/ ٧٩٢/ ٢/ ١ (٤٣٠).



والإسلام حرم الخلوة وشدد في ذلك؛ ليغلق منافذ الشر، فإن العبد وإن كان خيراً لا يحدث نفسه بالحرام، عليه ألا يحوم حول الحمى مخافة أن يرتع فيه، وألا يخالط الريبة مخافة أن يجسُر. وقد تساهل الناس في هذا الزمان في الخلوة بالأقارب، مع أن النبي ﷺ بالغ في التحذير من الخلوة بهم فقال: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل: أفرأيت الحموم؟ قال: «الحموم الموت»^(١).

والأدهى من ذلك خلوة الخدم والسائقين بالأبناء والبنات، فالبعض يتعامل معهم كما لو كانوا آلات، لا عقول لهم، ولا رغبات، ولا نزوات، والنتيجة ما نسمعه من رجال المؤسسات الاجتماعية والهيئات.

* ومن وسائل العفة المذكورة في الآيات الفرار من مواطن التهمة ﴿وَأَسْتَبْقَا الْبَابَ﴾، والفرار يقتضي تجنب أسباب الفتنة، فإن عرضت، فعلى المرء بذل جهده مواطن الريبة للنجاة منها.

* وفي هذه القصة بيان أن الحب إذا تجاوز الحد أضر بالمحب والمحبوب، فالحب إن زاد ولم يُدَاوِ دواءً شرعياً بالزواج، أو قطع أسبابه، وشغل النفس بما هو أنفع، عاد ضرراً على صاحبه، وعلى محبه، وربما على غيرهما، وقد كان حب امرأة العزيز ليوسف من هذا القبيل.

* ومن فوائد هذه الآيات بيان أن الإخلاص مما يُكسى به العبد ثوب العفة، وبه ينجى من الفتنة، وبهذا نجى الله تعالى عبده يوسف عليه السلام من هذه الفتنة العظيمة؛ لأنه كان عبداً مخلصاً، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] خلّص قلبه من الشرك ومن اتباع الهوى، فخلّصه الله تعالى بفضلته من الفتنة.

(١) البخاري: ٢٠٠٥/٥ (٤٩٣٤) وغيره، ومسلم ١٧١١/٤ (٢١٧٢) من حديث عقبة

ابن عامر رحمه الله.

فالإخلاص والتوحيد من أعظم أسباب العصمة من الفتن، والنجاة من الشهوات والشبهات، وتحقيقه كافل العفة، ضامن السلامة والعصمة. ومن كمال تحقيقه حفظ أوامر الله ونواهيه.

* ومن فوائد الآيات بيان أن الإحسان -الذي وصف به يوسف عليه السلام - سبب لأبواب خير تفتح على المحسن، كما أنه سبب من أسباب إيباد أبواب شر قد تتهدد المرء، ولا يظن ظان أن معنى الإحسان هو بذل المال لمن يحتاجه وحسب، كلا، بل هو معنى أوسع من ذلك وأشمل. ففي الحديث لما سأل جبريل النبي ﷺ أن يخبره عن الإحسان، قال له النبي ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»^(١). والذي يعبد الله كأنه يراه لا يقدم على أي تصرف مهما صغر حتى يعرف أين هو من مرضاة الله ثم يقدم أو يحجم.

الإحسان
سبب لفتح
أبواب الخير
للعبد

ويوسف عليه السلام كان محسناً، بل لم يملك أحد ممن رآه وتعامل معه إلا أن يصفه بذلك: وُصف بالإحسان وهو بين جدران السجن، ووصف به وهو القيم على خزائن الأرض، المتحكم في بيت المال، فلم يكن الإحسان صفة عارضة تكلفها لضعفه أو حاجته، لكنه كان خلقاً ضرب بجذوره في أعماق قلبه فاصطبغت حياته كلها به، حتى عند قدرته على إخوته، لم يخرج عن عادته وسجيته، فقال: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢]. وفي هذا المقام من قصته كان إحجامه عن مطاوعة امرأة العزيز إحساناً لنفسه بحفظها عن الموبقات، وإحساناً للمرأة بعدم الاستجابة لها، وإحساناً للعزيز بصيانة عرضه.

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري ٢٧/١ (٥٠)، و١٧٩٣/٤ (٤٤٩٩)، ومسلم: ٣٦/١ (٩) وما بعده، وأخرجه كذلك مسلم عن عمر.

* التراضي بين الطرفين عند فعل الفاحشة لا يخرجها من دائرة الحرمة، ولا ينفي عنها صفة الظلم مثلما يعتقد الناس في الغرب وفي البلاد التي لا تسترشد بنور الإسلام. فالظلم حاصل مع التراضي أولاً: لأن الذي خالف أمره هو الله تعالى، وثانياً: لئلا يهلك نفسيهما بالوقوع في الحرام، وثالثاً: لتعديه على آخر ولو برضاه، ورابعاً: لما

ينجم عن هذه العلاقة من آثار اجتماعية سيئة بين الناس الموجودين، وقد تنسحب على من قد يوجد جراء تلك العلاقات لو فتح لها الباب! وكل ذلك ظلم لا يجوز.

* الذي يظهر أن يوسف عليه السلام أراد بقوله: ﴿إِنَّهُ رَجِيَ أَحْسَنَ مَثْوَى﴾ [يوسف: ٢٣] عزيز مصر الذي قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وإنما قال لها يوسف ذلك؛ ليبين لها شناعة فعلته لو استجاب لها، إذ كيف يتعدى على عرض من أحسن إليه، وهذا هو الدرس المقصود فإن الإحسان يُحفظ به الإنسان، ويُكافأ عليه ولو كان كافراً في الدنيا.

* فالإحسان إلى الخدم ومن هم في حكمهم سبب في وفائهم وحسن أدائهم. وقد قال بعض أهل الأدب: لم تقل العرب قط بيتاً في الإحسان أصدق من قول الخطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العُرف بين الله والناس

* ومن دروس العفة في هذه القصة والتي ينبغي أن تُعَى هو أن يوسف عليه السلام لم يسع للفتنة كما يفعل بعضهم في زماننا هذا، بل هرب منها لِمَا وقعت؛ لذلك كتب الله تعالى له النجاة منها.

وهروبه منها أخذٌ بالأسباب، ولأنه استعصم بالله تعالى وأخذ بما بين يديه من أسباب قيض الله تعالى له فرجاً عاجلاً، فلقي العزيز عند الباب، فاضطرت

الاستعصام
بالله والفرار
من الفتنة
سبب للنجاة

المرأة لأن تكفّ عن ملاحقته، ثم كانت ملاحقتها وقد قميصه سبباً في الفرج الآخر لما بهتته، إذ تبين بالبرهان الدامغ أنه كان ضحية ولم يكن جانيًا رغم أن الرجل في مثل هذه المواقف يكون هو محل التهمة.

فعلى من يرجو رحمة الله بعصمته إياه من الفواحش ألا يسعى إليها، فإن جاءته، فليذل ما يجد من أسباب دفعها، وإلا فعلى نفسه جنى الجاني.

* ومن الفوائد أيضًا أن العفيف - وإن بلغ الغاية في تمام العفة - قد يُرمى بالسوء ظلمًا، فإن كان ذلك فالله حسبه، وعليه أجره، ومن كان الله معه فأبي كيد - مهما عظم - يضره؟ ولكن كما قال الله عن نبيه يوسف في غير هذا الموضع: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

قد يُرمى
العفيف ولكن
العاقبة له

* ومن الدروس بيان أن من أسباب انحسار العفة تجرد النساء من ثوب الحياء، مع تسربل الرجال بثوب الخنوع والديانة، فامرأة العزيز ما كانت لتتطاول وتكرر مراودتها ليوسف عليه السلام، على الملأ لولا تساهل زوجها، وساحه لها بالخلوة بالأجانب، وهو بذلك - قصد أو لم يقصد - أعانها على فعلتها.

من أسباب
انحسار العفة

ومن هذا القبيل أولئك الذين يتسكعون في النوادي والأسواق، ويجوبون شوارع الريبة وطرق الرذيلة، فعلى كل عزيز مصر أن يأخذ بأيديهم، وعلى الرجال أن يدركوا أن كل جريمة فاحشة تقع في بلاد المسلمين يتحمل بعض الرجال من وزرها شيئًا؛ فإذا رعى القيم على المرأة أمانته، وقام بأداء واجبه، فقلّ أن تفجر موليته.

إذا رعى القيم
على المرأة
أمانته، وقام
بأداء واجبه،
فقلّ أن تفجر
موليته



إذا فشت الفاحشة استمرت



* قالت النسوة: ﴿أَمَرَاتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾، ومن الملاحظ أنهم لم يقلن فتى العزيز راود سيدته، وفي هذه الآية طمأنة لأصحاب المبادئ الذين يتعرضون لتشويه السمعة عن طريق الإشاعات، إذ سرعان ما تنقشع سحابات الإشاعات وتبدي مواقفهم ساطعة كالشمس، والعامّة تقول: لا يصح إلا الصحيح، وصدقوا.

* السامع لعبارة النسوة يلحظ لأول وهلة أنها تطفح بالشتمات والتنقص لامرأة العزيز، والذي يظهر هو أن النسوة أردن إظهار فضلهن عليها؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث: «إنكن صواحب يوسف»^(١)، فمراد النسوة مدخول، وسيبلهن خاطئ فقد قارفن الشتمات ووقعن في التندر بامرأة العزيز، وزكّين أنفسهن وما حسبن أنهم بجلستهن تلك يشعن فاحشةً ويتمادين في ضلالٍ؛ ولهذا جاء جزاؤهن من جنس عملهن.

من المكر
التظاهر بالنصح واستنكار المنكر
من أجل الشتمات بهم، أو التنقص لهم ونشر أخبارهم، أمر شائع في زماننا هذا بين الرجال والنساء على حد سواء، وهو من الغيبة المحرمة التي تدل على ضعف التقوى.

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، ينظر: البخاري: ٢٣٦/١ (٦٣٣)، ومسلم ٣١٣/١ (٤١٨).

سقوط الحياء
من إتيان
الفواحش
المذاعة

* الفاحشة إذا فشا أمرها، سقط الحياء من إتيانها، وسهلت مقارفتها، بل ربما أصبحت مخالفتها منكرًا في العرف يترتب عليه السجن والعقاب؛ ولهذا جاءت تشريعات الإسلام مراعية هذا المعنى، حريصة على كبت قالة السوء ومنع فشو الرذيلة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، قال البخاري: تشيع: تظهر^(١).

ومن مراعاة الإسلام للحد من ذلك تشريعه للحدود، ومراعاته في تشريعها منع ذبوع الفاحشة، ومن ذلك جعل الحد في الزنى على من شهد عليه أربعة شهود؛ لأنه إما مجاهر بالمعصية، أو سبب لإشاعتها برؤية الجرم الغفير مع ترك الحد والنكير، أما المستتر فلا حد عليه ما لم يشهد على نفسه ويطلب التطهر من ذنبه.

* وهذا المعنى ينبغي أن يستفيد منه الآباء والمعلمون والمربون، فيراعوا هذه القاعدة عند التعامل مع الأبناء والتلاميذ، فالذي يدخن سرًا مثلاً يُستر أمره، وتعالج مشكلته دون أن يشعر بها من حوله؛ لئلا يجسروا على الإقدام، بخلاف من يجاهر بذلك، فإن على صاحب الولاية أن يردعه بما يليق.

التفريق في
التربية بين
المجاهر
والمستتر

ولهذا لما اشتهر أمر امرأة العزيز ولم تجد الرادع تمادت، فبعد أن كانت تستتر منه، وتغلق الأبواب، وتعهده فعلاً يستوجب العقوبة ويلزم الفرار منه ولو بالكذب والإنكار، إذا هي تبلغ في طلبه أقصى حدود الجرأة، حتى هددت يوسف عليه السلام، أمام النسوة بالسجن والصغار ما لم يتدنس بالرذيلة.

(١) صحيح البخاري (١٠٦/٦).

هل تمنى يوسف البلاء؟ * ومن الفوائد المهمة ما نجده من فزع يوسف عليه السلام إلى ربه ومولاه سبحانه وتعالى، فقد ناداه باسم الربوبية، فقال: ﴿رَبِّ﴾ التي توحى باستحضار النعم وتذكر سالف العناية والرعاية، وأعظمها الحفظ من سبل الغواية، ثم قال: ﴿الْسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، كأنه يعني أن السجن ابتلاء، والوقوع في المنكر ابتلاء، فهذا أحب إليه من مواقع المنكرات والانضمام لركب الجاهلين.

فليس صحيحًا أنه تمنى البلاء أو دعا على نفسه، بل ليس في الآية دعاء أصلاً، وغاية ما في هذه الآيات أن يوسف عليه السلام سمع قول امرأة العزيز الآنف وعلم خيارَيْها اللذين لا ثالث لهما: الإجابة أو السجن، وأدرك أنه لا محيص عن أحد الأمرين، فصار السجن محبوبًا إليه باعتبار أنه يخلصه من الوقوع في الحرام، كمحبة من تهدده أسدٌ بالافتراس إن خرج من السجن أن لا يخرج.



مع الحكمة قد تكون المحنة منحة



* يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ وهذا السجن من الابتلاء الذي هو سنة الله في عباده الصالحين، وفي الحديث: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأُمَمُ فالأُمَمُ»^(١)، فلا تنقم إن نزلت بك نازلة في الله، واصبر لحكم مولاك، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك فاحمد الله على أن جعل سببه خيرًا، واعلم أنه تجب عليك في تلك الحال عبادة من نوع آخر، فاشغل نفسك بها، وبعد التمحيص تكون العاقبة للتقوى.

الابتلاء سنة الله
في عباده

* لا شك أن السجن ابتلاء ينبغي للعبد أن يسأل الله تعالى أن يعافيه منه، لكن المسجون ظلمًا وعدوانًا لا يزيد السجين إلا رفعة ما دام ثابتًا على الحق، فلا ينبغي للداعية الصادق المخلص أن يأسى أو يحزن على ما أصابه طالما كان سجنه ظلمًا وجورًا، فما الذي يريده المصلح بدعوته غير رفعة درجاته وتعظيم حسناته؟ وهذا ما يناله في حال سجنه ظلمًا وعدوانًا، يرفع الله درجته ويعلي منزلته، ويكون سجنه خلوة وميدانًا للعبادة والعلم ومراجعة النفس، وساحة للتربية ومعرفة الناس في الرخاء والشدة.

* فتح يوسف عليه السلام لنفسه آفاقًا رحبة داخل السجن، فلم ينزو في ركن زنزانه مظلم قصيٍّ مُحْطَمًا يلعن ظلام السجن وظلم السجّان، بل من فور دخوله بدأ في إشعال شموع الدعوة، والتعامل مع واقع السجن بحكمة دون استسلام

(١) حديث صحيح رواه ابن حبان في «صحيحه» ١٦٠/٧ (٢٩٠٠)، والحاكم في «مستدرکه» ١٠٠/١ (١٢١)، ورواه غيرهم، وصححه غير إمام، قال الذهبي: على شرط مسلم، وله شواهد.

لذلك الواقع المكبل أو الإذن له في تكييله، ودون استسلام لأصل الحكم الجائر تحويل المحن الصادر عليه، فقد قاومه بما يطيق ومن ذلك قوله لأحد السجينين: ﴿أَذْكُرْنِي إِلَى مَنْحٍ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وبهذا صارت المحنة منحة، فقد حققت بعض مقصوده في الدعوة، وكانت سبيلاً لاعتلاء خزائن الأرض.

*الذي يظهر أن يوسف عليه السلام كان داعية إلى الله تعالى بأخلاقه قبل أن يكون داعية بكلامه؛ ولهذا علل السجينان اختياره من بين السجناء ليقصا عليه رؤياهما الداعية إلى الله بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، والناس يحبون المحسنين، كما أن رب وحسن الخلق الناس جلّ وعلا يحب المحسنين، وكأن الآية تشير بفحواها إلى أن من أسباب تلك الموهبة الربانية - أعني صواب تأويل الرؤى - الإحسان.

* هنا تتجلى حكمة يوسف عليه السلام في استثماره فرصة تصلح للدعوة التي يعود نفعها على المدعو والداعي، وهذا كان ديدنه عليه السلام، فطناً لبيياً يحسن الاستفادة من واقع الأحداث واستثمارها، وهذا ملاحظ في سورة يوسف، فلما جاءه السجينان يطلبان تأويل رؤياهما استثمر الفرصة ودعاهما إلى الله، ولما خرج الساقى من السجن، استثمر الفرصة وأخذ بالسبب للتخلص من السجن ظلمًا، فقال له: (اذكري عند ربك)، ولما طلب منه الخروج من السجن، استثمر الفرصة؛ ليظهر براءته وقال للرسول: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بِأَلِ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، ولما قابل الملك وقال له: إنك اليوم لدينا مكين أمين، استثمر الفرصة وقال له: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

* عرض كل من الفيتين رؤياه على يوسف ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فاستثمر يوسف عليه السلام الفرصة السانحة لما يعود على السجينين بالنفع العميم، وحتى يتم له ذلك شرع يرسخ عندهما علمه بشيء من

استثمار يوسف الغيب الذي أطلعه عليه ربه سبحانه وتعالى؛ ليعلما أولاً أن تأويل الرؤيا لن يقع جزافاً، فيحملاه محمل الجد، وليوطى أمر دعوتها للتوحيد، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِأَوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، هو من براعة استهلال أمر الدعوة، فبدأ بما يتعلق بموضوعهما، وأخبرهما أنه ليس من عنده وإنما هو من قبيل الغيب الذي علمه إياه ربه: إما حياً وإما إلهاماً أو بهما.

* وفي قوله: ﴿ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧] فائدة أخرى تتعلق بمنهج الدعوة، فقبل أن ينتقد يوسف عليه السلام دينهما ويقرر لهما بطلانه أشعرهما بأن الله تعالى الذي سيدعوهما للإيمان به منعم متفضل؛ ليفتح قلوبهما لِمَا سيقول، لأن الإنسان بطبعه يحب المحسنين المتفضلين، فقال: ﴿ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، وكلمة ﴿رَبِّي﴾ فيها معنى الرعاية وتدبير الأمور. كما أنه لم يقل لهما: إنكما على دين باطل، بل قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، والداعية حينما يبين للناس الحق بالكلمة الهادئة المحكمة لا الاستفزاز وافتعال الخصومات فسيفهمون أن ما سواه هو الباطل؛ لأنه ليس بعد الحق إلا الضلال، صحيح أنه قد يحتاج لمواجهة الناس بباطلهم، بل ربما قتالهم إن أصروا واستكبروا لكن ليس هذا هو الأصل في كل مقام.

* ثم قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ النَّاسُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، ويبدو أن يوسف عليه السلام ذكر آباءه لفائدة، إذ ربما يعرف السجينان طرفاً من أخبارهم، كيف لا وهم أعلام هدى ومصابيح دجى، وقد كان أبوهم إبراهيم عليه السلام أشهر من علم على رأسه نار، وكانت له مواقف مذكورة مع حاكم مصر.

وكل ذلك جارٍ على عادة الأنبياء في تعظيم الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، بخلاف من تنكّب سبيلهم، تراه ثاني عطفه يظن أنه قد حقق التوحيد، فإذا أمر أمر به أو نهى عن ضده، فلا يظن أبدًا أن الكلام متوجه إليه، أو أنه عادة الأنبياء مقصود مخاطب به، فاللهم رحماك رحماك، إياك نسأل أن ترزقنا تحقيق التوحيد، تعظيم الأمر والعناية به، وخوف الشرك، والحذر منه، وأن تجنبنا وبيننا أن نعبد الأصنام، ربنا بالتوحيد إنهن أضللن كثيرًا من الأذكياء، في الهند والسند، والشرق والغرب، بل وفي بعض الديار المسلمين، فلك الحمد على الهداية، ونسألك الثبات حتى نلقاك على التوحيد، أرجى ما به نلقاك.

* وبعد هذه المقدمة اليوسفية - على صاحبها السلام - أشعرهما أنه لم يُرد بذكر آبائه التفاخر وإن كانوا أنبياء، وإن كان أحدهم خليل الله، فذكر لهما أن ما به وبآبائهما من نعمة فمن الله وحده، وهذه النعمة - أي: نعمة التوحيد - هي أسبغ النعم عليّ وعلى آبائي وعلى الناس كافة كذلك، والفرق بيننا وبين الناس أن الناس لا يشكرونها، وشكر نعمة الهداية للتوحيد يكون بالقيام بحق كلمة التوحيد والعمل ليس بمحظور بمقتضاها، وما من شك أن الأنبياء هم أكثر الناس قيامًا بحقها، وعملاً بمقتضاها، إثبات الصحة بكل ذلك خرج على سبيل الترغيب لهم فيها، وتأكيّد الدعوة بالفعل، فإن رده النعمة بالمعنى اللغوي إلى موليها، والأفضال إلى مُسديها - سبحانه - من جملة توحيد الربوبية ومقتضاها. فاسق أو كافر

* ثم قال مخاطبًا لهما: ﴿يَصْحَبِي السَّجْنُ﴾! والمعنى: يا صاحبي في شدتي، ومراده الصحة في أصل اللغة، وهذه لا محذور في إثباتها، فقد يحبس المرء جورًا مع فاسق أو كافر فيصحبه في السجن، وليس في ذلك غضاضة عليه، وهكذا كل صحة اقتضاها مقتض صحيح، وبعد أن ناداهما بلفظ الصاحب الذي يشعر بالقرب الوجداني استخدم مهارة من مهارات الدعوة، فناقشهما نقاشًا عقليًا يؤكد لهما بطلان دينهما.

والمقصود أن يوسف عليه السلام استثمر الفرصة السانحة في الدعوة، ومهد لذلك بضرب من إلانة الكلام، كما فعل موسى مع فرعون. ونبينا ﷺ كان كذلك، فربما ألان الكلام مع المشركين لأجل الدعوة، فتراه يكني الرجل منهم كما فعل مع عتبة بن ربيعة لما جاء يساومه ليتخلى عن دعوته وأساء معه الأدب، ومع ذلك لم يعتقه النبي ﷺ ثأراً لكرامته، أو انتصاراً لنفسه، لكنه استمع إليه حتى انتهى من كلامه ثم قال له: «أفرغت يا أبا الوليد؟»^(١)، فقابل سوء الأدب بالأدب الجم، فكل إناء بما فيه ينضح، وهو يعلم أن ذلك لن يضيع عند ربه، وقد كان همهم الأول إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولا يخفاه أن في الصبر على المكاره خيراً كثيراً^(٢).

* ومع ذلك لم يكن حرص الأنبياء، ومنهم نبينا ﷺ على هداية الناس يدفعهم لاستعمال أية عبارة تدل على أدنى درجات الموالاتة للكافرين، فقد عامل اليهود بالحسنى، وعقد معهم الموائيق، لكنه ما أشعرهم في يوم من الأيام بأنهم على حق، ولا سعى في يوم من الأيام للتقريب بينهم وبين المسلمين، عن طريق التنازل عن شيء من الدين، أو إيهامهم بأنهم غير كافرين أو ناجين، لا في زمان ضعف الدولة الإسلامية ولا في زمان قوتها، بل كان يقول لهم: «أنا أحق بموسى منكم»^(٣)، هكذا دون مواربة، فالحق أحق أن يقال.

التلطف في
الدعوة ليس
هو الموالاتة
وقول الباطل

(١) الأثر بهذا اللفظ رواه ابن إسحاق في «السيرة» ١/ ١٨٧، وعنه رواه جمع وسنده صحيح إلا أن فيه انقطاعاً، وله شواهد أخرى تختلف أهل العلم في تصحيحه بها. وقد ثبت في «الصحيحين» تكنية النبي ﷺ لعبد الله بن أبي ابن سلول، وفي الصحيح قال: «هذا قبر أبي رغال»، وكان أبو رغال كافراً. والخلاف في تكنية الكافر منتصب بين أهل العلم، والصحيح عدم الجواز إلا لمقتضى تبدو مصلحته.

(٢) ينظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ٩٢، أول سورة فصلت.

(٣) البخاري ٢/ ٧٠٤ (١٩٠٠).

* فأين ذلك مما يفعله بعض الناس محتجين بما ليس فيه حجة على الباطل؟ إن تسمية دول الكفر بالدول الصديقة أو الدول الشقيقة، وتهنتهم بأعيادهم فيه إقرار بباطلهم، وإخفاء لواجب البراء منهم، بل فيه ركون إليهم، وإشعار لهم بعلو شأنهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

والواجب التفريق بين المعاملة بالحسنى وبين الركون، والإطراء والتعظيم، فيحسن إلى غير الحربين، ويُقسط معهم، فلا ينتقص حقهم، ويوفى إليهم ما لهم، ولكن لا يعظمون ولا يوالون، ففرق بين إعطاء الحق الذي هو القسط على أكمل وجه وهو الإحسان وبين التعظيم والموالة، ولا تنافي بين البر والقسط وبين البراءة من الكافرين، بل لا تنافي بين الإحسان والقتل: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته فليُرخ ذبيحته»^(١)، والإطراء أما التعظيم والمودة والموالة فلا، فلا يقال للكافر: سيد، ولا صاحب السعادة، أو الفخامة أو الجلالة، ونحوها من عبارات التبجيل والتفخيم، وفي الحديث: «لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً، فقد أسخطتم ربكم عز وجل»^(٢).

وجماع ما تقدم أن موالة المؤمنين والبراءة من الكافرين أوثق عرى الإسلام، والتساهل في ذلك قدح في التوحيد، والأنبياء من أبعد الناس عن هذا، وقد سلخوا في دعوة الكفار مسلك القسط والإحسان، دون تعظيم أو مودة.

(١) حديث شداد بن أوس في «صحيح مسلم» ١٥٤٨/٣ (١٩٥٥).

(٢) رواه أحمد في المسند ٣٤٦/٥، ح (٢٢٩٣٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٠)، وأبو داود في سننه (٤٩٧٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٦٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٤)، وغيرهم وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٣٧١).

وكما أنه ينبغي التفريق بين الإحسان وبين الموالاة والتعظيم، فينبغي كذاك التفريق بين سب دينهم، وبين تبيان ما به من باطل بأسلوب هادئ رصين منضبط، لا يثير المدعو ولا يستفز حميته للجاهلية.

التفريق بين سب دين الكفار وبيان ما به من باطل

* وبعد أن ناداهما بذلك النداء، وعطف قليهما إليه بذلك الأسلوب، سألهما مقررًا ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فأَي الحالين خير: وجود أرباب متنوعة يستقل كل واحد منها بأثر، أم إله واحدٌ معبود بحق حبًّا وتعظيمًا، فلا يستقل بالتأثير شيء دون الواحد القهار؟

تقرير يوسف عليه السلام للإلهية

وكانه يشير إلى أن الخيار الأول يقتضي فساد نظام الكون، وعلو بعض الآلهة على بعض، وذهاب كل إله بما خلق، وهذا خلاف الواقع، ولو كانت أربابًا متفرقة لامتنع أن يكون أحدهما مستقلًا بخلق العالم، إذ لو استقل لكان الرب واحدًا للعالم، وامتنع أيضًا أن يكون أحدهما مشاركًا للآخر معاونًا له؛ لأن ذلك يستلزم عجز كل منهما إلا بمعونة الآخر، والعاجز لا يكون ربًّا ولا يستحق أن يكون إلهًا. وإذا تقرر أن وجود أرباب متفرقين ليس بخير، فلم يبق خير في المفروض إلا وجود إله حق واحد متفرد بالقهر والتصرف، مستحق دون سواه للعبادة والتعظيم.

* ثم أكد ذلك ببرهان آخر وهو عدم الدليل على صحة دينهما، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فهذه الآلهة التي تعبدون ما أنزل الله سبحانه وتعالى لعبادتها من سلطان، ولا حجة لكم في عبادتكم إياها، فلا برهان من أثر ولا نظر يفيد أنها آلهة حقًا، بل هي مجرد أسماء اخترعتموها ثم عبدتموها، وأيضًا فالحكم الشرعي والكوني لله وحده وليس لكم أن تثبتوا لهما تعبدون شيئًا من أقسام الحكم، وإذا لم ينزل الله سلطانًا لعبادتها، فقد أنزل سلطانًا لعبادته وحده، فاعبدوا من له

الحكم وحده، الذي أمر أن لا تعبدوا غيره، ولا تتحاكموا إلى غير شرعه، وفي هذا تقرير أن تحكيم شرع الله دين يقترن بالتوحيد ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالذين يحصرون الدين في أفراد الله بأداء الشعائر له وحده سبحانه، في توحيدهم نقص ما لم يتحاكموا إليه ويسلموا تسليماً، بل ﴿مَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، فقد يكون ترك تحكيم شرع الله كفراً وقد يكون دون ذلك كما بين القرآن الكريم، فالدين الموصل لرضوان الله هو الدين الذي لا يعبد فيه إلا الله ويكون الحكم فيه لله، ف﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان غير مستقيم، معوج يوصل إلى الشر، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها. ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك.

* ثم بعد أن عبر لكل واحد منهما رؤياه: ﴿قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، والتعبير هنا بـ(ظن) مع أنه نبي مسدد، مشعر بأن على غيره من المعبرين ألا يقطع بصحة تعبيره؛ لأنه ربما أخطأ.

* وطلبه من الذي ظن أنه ناج أن يذكره عند ربّه -أي: سيّده، وهو الملك- ينبغي للمعبر أن لا يقطع بتعبيره

نوع من الأخذ بالأسباب، وبهذا يعلم أن يوسف عليه السلام، بذل ما في وسعه من الأسباب التي تجعل السجن تلك المحنة منحة تحمد عاقبتها، ومن كان هذا شأنه حري به أن يتم له مقصوده، وأن تكون العاقبة له، ولو بعد حين، وهذا ما كان ليوسف عليه السلام بعد أمد كانت مدته بضع سنين، والبضع: من ثلاث إلى تسع سنين، في الأخذ بالأسباب

والتعبير بالسنة يُشعر بشدة تلك الأعوام.

* ولعل من مقاصد يوسف عليه السلام في حضه الفتى على ذكره، إبلاغ قضيته الملك؛ ليشعره بأهمية العناية بحقوق السجناء، وبضرورة حرص ولاية الأمور على التعرف على أحوال المسجونين؛ لئلا يسجن أحد بغير جريمة، أو يسجن جانٍ فوق ما يجب، أو يضيع أي حق من حقوقه.

* قال تعالى: ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، ونسيان الساقى أن يبلغ الملك وصية يوسف عليه السلام، كان ابتلاءً آخر، لكن لعل ربه تعالى بعلمه وحكمته لم يشأ أن يجعل لعبد من عبيد الملك على عبد من عباده تعالى فضلاً، فلم يجعل فكاك هذا النبي الكريم من السجن بالتماس يُقدِّمه أحد السقاة للملك، كلا، لن يخرج صفيه عليه السلام إلا بالتماس من الملك نفسه يُقدِّمه له بعد أن ينفذ كل شروطه، ثم يمكنه من خزائن الأرض يفعل فيها ما يشاء وفق مقتضى حفظه وعلمه، ويمكنه من الأرض يتبوا منها حيث يشاء، وتلك عاجل بشرائه. أما في أخراة، فلا تدري نفس ما أخفي له من قرة أعين، جزاء إحسانه وتقواه.

اختيار الله
للعبد خير من
اختياره لنفسه

ولكأنى أسمع هذه الآيات تنادي أمة غافلة أن هلمي إلى كتاب ربك، فلا هادي لك في ظلمات هذه الجاهلية سواء. ما لي أراك تتلفتين شرقاً وغرباً تلفت الحائر المغلوب؟ عمّ تبحثين؟ عن تجارب من تفوقوا عليك حضارياً لتلحقى بركبهم؟ ألا ما أضلك وأشقاك! أتى لمثلك أن يُقلد أمثال هؤلاء الضلال الفاسقين؟ أوتتخذين ما حباك الله به من نعم وراءك ظهيراً، ثم تُطوفين على موائد هؤلاء اللئام فيضنون عليك بما عندهم من رجس؟

أيتها الأمة المختارة! أتبحثين في هيئات القوم ومؤسساتهم عن ميثاق يعطيك بعض حقك، ويحميك من ظلم بعض المعتدين؟ ألا ما أتعسك وأغباك! متى سمعت في دنيا الحيوان عن نعجة تختبئ من القصاب في بيت الذئب؟ أنت أضل

من هذه البهيمة؟ أما وقعت عينك مرة واحدة ولو على سبيل الصدفة على ميثاق ربك: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]؟ ربك جلَّ في علاه يصرح بلفظ الوعد، ويقول لك: أخاطبك أنت، ويؤكد لك كل بنود الميثاق بكل ما تعرفين من أدوات التوكيد، ثم تفرين منه إلى هؤلاء العبيد؟ وهم على هوانهم يستكبرون عليك، وكلما ألحفت في سؤالهم واستجدائهم زادوا في احتقارك وازدراءك!

أيتها الأمة الغافلة اللاهية: لتمسحنَّ عن عينيك ما علاهما من غشاوة، ولتزيلنَّ عن أذنيك ما بهما من وقر، ولتقبلنَّ على كتاب ربك بعقل اللبيب المتدبر، وقلب المؤمن الصادق، أو فلتأذني بخزي يُجلِّلك ما امتدت بك الحياة، ولتعلمي أنك مردودة إلى أشد العذاب يوم يقوم الحساب.

أيتها الأمة الفارّة من رحمة ربك الوهاب! بادري بالإياب، قبل أن يوصد دونك الباب، وابدلي الأسباب، متعلقة بالقويّ مسبب الأسباب، ومذلل الصعاب .. سبحانه ما أعزَّ شأنه.



رؤيا الملك



تعظيم شأن * هذه الرؤيا خلّد الله تعالى ذكرها في كتابه العزيز وذكر تفاصيلها؛ لأنها من الرؤيا وتفخيمه أعظم الرؤى التي عرفتھا البشرية، فقد تعلقت بها حياة شعوب بأكملها، إذ رآها لثلاثي مجرى عليه ملك مصر، فأهمته وأقلقته، وجمع الأعيان وأهل المشورة والرأي لتعبيرها، وقال: ﴿أَفْتُونِي﴾؛ ليفخم أمر الرؤيا ويعظم شأن الحديث فيها.

جهل البطانة * ورغم ذلك فلمّا قصها عليهم، قالوا: أضغاث أحلام! فحسموا القضية وسوء تعبيرهم - هكذا بالجهل - بهذه السذاجة واللامبالاة على عظمها، وبثّوا فيها بهذه السرعة رغم جهلهم الذي لم يخفوه! وكان حريّا بهم إذ جهلوا أن يحيلوا على أهل العلم والاختصاص، أو يبينوا جهلهم، وأما الفتوى بغير علم، فقد تورد الناس المهالك، ولك أن تتوهم كيف يغدو أمر الدولة لو لم يذكر الساقى الذي أفاد من صحبته ليوسف عليه السلام في السجن؟ أتهلك أمة كاملة؛ لأن الملك لم يحسن اختيار مستشاريه، أو لأنهم لم يحسنوا النصيح له؟ أيتضور الناس جوعاً سبع سنين حسوماً؛ لأن المستشارين لا علم لهم، ولا ضمير؟

إن عدم اختيار البطانة الصالحة التي تحسن سياسة أمور الدولة، وتحرص على مصالح الرعية من أضر الأخطار التي يمكن أن تتهدد البلاد، وهذه الحقيقة تتجلى للمتأمل في خبر ملكة سبأ لمّا جاءها كتاب سليمان عليه السلام، فاستشارت الملأ، فأشاروا بالمواجهة بالقوة دون روية ودراسة ونظر في العواقب، وتقديرًا لشأن من تحارب! ولو عملت بمشورتهم لمّا قامت للملكها قائمة، ولصار أعزة مملكتها أذلة حقًا.

* وفي قول الملاء: ﴿أَضَعْتُ أَحْلَمَ﴾ ترك لنوع من التلطف في العبارة أهمية التلطف مع الكبراء والأدب، ومثل هذا الأدب في التعامل مع الكبار والزعماء أمر مطلوب حتى ولو كان هذا الزعيم كافراً، والنبي ﷺ لَمَّا راسل القادة إلى الدول المجاورة كان يراعي في خطابه لهم مكانتهم عند قومهم فكان يكتب مثلاً: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم»^(١)، فلم يقل العظيم مطلقاً لكنه قيدها فقال: عظيم الروم، وهو عظيم عند قومه، وبخلاف الملاء كان الساقى أكثر أدباً حيث قال: (فأرسلون) مخاطباً الملك، خطاب الجماعة.

ولا شك أن الأدب مع القادة والملوك من الحكمة في الدعوة، وهو مطلوب مع الناس كافة، إلا أن النفاذ لقلوب الملوك بالكياسة وحسن الأدب فيه مصلحة للأمة كلها؛ لأن الرعية تصلح بصلاح راعيها، والأصل قول ربنا سبحانه: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، أما الزعيم المحارب الذي يصد عن دين الله، فلا بد من إظهار العزة بالإسلام عند الحديث معه أو مكاتبته، وقد روي أن هارون الرشيد أرسل لقائد الروم لَمَّا هم بقتال المسلمين: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم^(٢)، فلكل حالة ما يناسبها، ولكل شخص ما يليق به.

* هنا تذكر الساقى ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾^(١٥) يُوَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ خُضَرٍ وَأُخْرَى يُاسَنَتُ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وهكذا ما بين يوم وليلة جعل الله تعالى رؤيا الملك سبباً في التمكين ليوسف عليه السلام، وللتعريف بكرم

(١) البخاري: ٤/١٦٥٨ (٤٢٧٨) وغيره.

(٢) «تاريخ الطبري» ٤/٦٦٩.

أخلاقه، وإعلان براءته. فمن فضل الله جل وعلا على يوسف عليه السلام أن صاحب الرؤيا هو الملك، وأن رؤياه تعلقت برعيته وباستمرار ملكهم ورغد عيشهم، وأنه ما من أحد استطاع أن يعبرها غيره، فذلك وغيره كان سبباً في اهتمام الملك بأمره، وتقريبه منه، بل وتوليّه وزارة مصر، وفي كل ذلك إيدان ببداية التمكين ليوسف عليه السلام ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].



الداعية وتنقية الصحيفة والبعد عن الريبة



* لما جاء الرسول يوسف عليه السلام أبى أن يخرج من السجن حتى تثبت براءته،
فلا يبقى في نفس أي أحد أدنى ارتياب من أمره، والناس غالباً ما يخفون لمقابلة
الكبار والملوك إذا سنحت لهم الفرصة، كما أن السجين لمّا يتلقى نبأ الإفراج عنه
يستحوذ النبأ على كل مشاعره، فلا يكاد يفكر في شيء سوى الإسراع بالخروج،
لكن يوسف عليه السلام لم تستغرقه اللحظة الحاضرة، بل كان يعي هدفه، وكان رشد
عقله قادراً على السيطرة على مشاعره، والتفكير في مآلات الأمور. وتبرئة النفس
من أي تهمة لحقت بها أو ربما تلحق بها مطلب شرعي.

* ولهذا لمّا جاء الأمر من القيادة العليا للدولة إلى يوسف عليه السلام بالمجيء قال
بملء فيه: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأُلْهِمَ مَا بَالَ الْإِسْوَاءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ
عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، كلمة حكيمة ليست رعاء ولا هوجاء، فلم يجب بما لا يناسب
مقام المخاطب، ولم يقدح في المدعى عليهن، بل عمد إلى تبرئة جنابه بأعف عبارة،
فلم تكن عفة يوسف عليه السلام تقتصر على ابتعاده عن المنكرات، بل بلغت عفة لسانه
حدّاً يجعله لا يشير إلى المرأة التي حاولت فتنه، ثم سجنته هذا السجن الطويل، بل
يذكر قرينة تشير إلى القضية دون أن يصرح باتهام أحد، والذي يتجنب الفحش في
الكلام لا يمكن أن يقع في فاحش الأفعال.

الإحسان
للمسيء من
أسباب ندمه
على إساءته

* ويبدو أن موقف يوسف وعفة لسانه مع امرأة العزيز الساجنة المراودة
المسيئة، كانت عاقبته ندمها، وفواقها من غفلتها، واستشعار عظيم جنايتها في
حقه، وتلك حال قد تعتري كثيرين ممن يسيئون للآخرين، فإذا قدر الآخرون
ولم يكافؤوا بالإساءة بالإساءة، بل أحسنوا إلى المسيء، كان لذلك عظيم الأثر على
النفوس التي لم يتمكن اللوم من أصحابها، ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:
٣٤].

فيوسف خلاء براء، انفسحت عنه التهمة، وسقطت عنه الظنة، وبان للملأ
أنه بمنترح عما رُمي به، وإذا نفى الشهود التهمة عن المتهم، وأكد الخصم براءة
خصمه دون حضوره أو حضور هيئة دفاعه، كان في ذلك دليل قاطع على نقاء
جيبه، وأمن مُغَيَّبته.



الولاية والتمكين



* بعد أن حصحص الحق وظهر أمر الله، حصلت النقلة، فإذا بسجين من السجن إلى الأمس، الذي لم يكن أحد من البشر قبيل يوم من تسارع الأحداث، يستطيع أن يخمن موعد خروجه، إذا به بين عشية وضحاها يتوجه نحو القصر؛ ليكون شريكاً في الملك، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، فسبحان من بيده الملك، إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون، أو بعد ذلك يتطرق اليأس إلى قلوب عرفته؟ فما بال نفوس بعض المؤمنين امتلأت يأساً؟ أليس الله أهلاً لحسن الظن؟ ألم تجر سنته بتداول الأيام بين الناس، وقد حكم أن العاقبة للمتقوى؟ ألم يقل الله عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، أليست لنا في القصص عظة: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، فما أقرب النصر والتمكين لهذه الأمة المستضعفة المسلمة، إن نصرت ربها، وراجعت دينها، واستقامت على سنة نبيها ﷺ، ثم صبرت على التمحيص، عندها يخلق الأسباب خالق كل شيء، كما خلق ليوسف عليه السلام بين عشية وضحاها أسباباً لم تكن في الحسبان، إنه على كل شيء وكيل.

طريق
التمكين

والتأمل في تلك الأسباب يجد علاقتها بالإيمان ظاهرة، فأحسان يوسف عليه السلام، وصبره على الطاعة وعن المعصية وعلى القضاء، وحسن تصرفه وعزته، كلها أسباب دعت الملك ليصدر قرار الاستخلاص من فوره.

* جاء يوسف عليه السلام إلى الملك فلما رآه وكلمه، ازداد إعجاباً به، فلم يملك إلا أن يقول: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، مكين: ذو مكانة، وأمين: فاعيل يدل على تمكن وصف الأمانة فيه.

اختيار المنصب
المتناسب
مع قدراته،
ويستطيع من
خلاله أن ينفذ
إلى قلوب
الناس

* ومما يدل على عقل يوسف عليه السلام ورشده استشاره الفرصة إذ طلب منه أن يوليه وزارة تتناسب مع قدراته، ويستطيع من خلالها أن ينفذ إلى قلوب الناس ويبلغ رسالة ربه، فالناس يستجيبون لمن يُعنى بمصالح دنياهم، كما يعنى بمصالح آخرهم، مع عفته عما في أيديهم، فإذا عرفوه ناصحاً في الدنيا - حيث يتنافس الناس عليها - استدلووا بذلك على نصحه لهم في شأن آخرتهم، حيث لا مصلحة له بغشهم، فراعى يوسف في طلبه ما فيه نفع الناس، مع علمه بصلاحه له، وراعى أيضاً في طلبه حاجة الناس إليه في ذلك المقام حيث علم من نفسه القدرة على الخروج بالدولة من الأزمة المقبلة، فقال له: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ثم بين للملك - الذي استقرت عنده مكانته وأمانته المقتضية صدقه - سبب اختياره لهذه الوزارة فقال: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾.

* ولعلك تلاحظ في تعليل يوسف أحقيته بالمنصب أسباباً خصّها دون غيرها، فلم يقل: إني حبيب كريم، فليس الحسب وكرم الأصل مؤهلاً للولاية إذاً، ولم يقل: إني مليح جميل، فليس ذلك معتبراً هنا، ولم يقل: بما أنني صرت قريباً منك، أو في حاشيتك لذلك عليك أن توليني، فليس ذلك مؤهلاً من مؤهلات ولاية العامة، ولم يقل كذلك: ولني لفصاحتي ولباقتي ونحو ذلك مما حباه الله إياه وفاق فيه

غيره؛ لأنه لا يناسب الطلب، بل ذكر الحفظ والعلم، وهنا مربوط الفرس كما يقال.

* وإخباره عن نفسه بذلك ليس هو من التزكية المذمومة التي هي من

باب العجب أو الغرور أو الفخر، فما نُهي عنه هو قصد تزكية النفس، أما
ذكر الكلام المنطوي على تزكية للنفس لغرض الإخبار بحق لحاجة أو ضرورة
يتوصل بها إلى هدف مشروع هو المراد لا أصل للتزكية، فلا حرج فيه، وقد يجوز
تبعاً ما لا يسوغ استقلاً.

وهذا كثير في السنة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد
المطلب»^(١)، فهذا فيه إخبار ينطوي على شيء من مدح النفس، لكنه أراد بذلك الخبر
الحض على الثبات، وقال: «أنا سيّد وَلَد آدم ولا فخر»^(٢)، فهذا خبر ينطوي على
تزكية، لكنه أراد بذلك أن يبين حقيقة.

* إذا كان الأمر كذلك؛ فلا يسوغ لأحد أن يحرص على ولاية لا يحسن تدبير
أمرها بحجة الإصلاح، فإن جهله بها أو عدم قدرته عليها من دواعي الإفساد
وإن زعم إرادة الإصلاح، وحسن النية لا بد أن يصحبه صواب العمل.
* وهل يجوز طلب الولاية؟

الطيبون من أهل الإسلام في هذه المسألة طرفان ووسط: ففريق يريد أن
يعيش في هذه الحياة دون أن يثقل كاهله عبء مسؤولية يعرف أنه محاسب عليها، الولاية
وفريق يرى أن في الولاية فرصة سانحة لنشر الدين وإظهار شعائره، فمن خلاها
يكون الأمر بالمعروف، وبها يكون للنهي عن المنكر سلطان، والقول الوسط في

(١) متفق عليه من حديث البراء بن عازب، ينظر البخاري ٣/ ١٠٥١ (٢٧٠٩)، ومسلم
٣/ ١٤٠٠ (١٧٧٦)، وقد روياه في غير موضع.

(٢) رواه مسلم ٤/ ١٧٨٢ (٢٢٧٨).

المسألة: هو أن طلب الولاية إذا قامت دواعيه شرع، أما إذا كان طلب الولاية لحظ النفس كتحصيل مكسب يراه حلالاً، أو يشتمل على تقديم غير الكفاء فلا يجوز، بل على الوالي إذا جاءه من يطلب الولاية وهو يعرف أن في البلد من هو مثله أو من هو أكثر كفاءة منه ألا يوليه؛ لأن طلبه للولاية نقص، ومخالفة لأمر النبي ﷺ وهدية.

حكم المشاركة في برلمانات الدول الكافرة * وهنا يرد سؤال: هل ينسحب ذلك على وزارة الدول الكافرة أو الظالمة والمشاركة في برلمان الدولة الكافرة؟
المختار أنه يجوز بشروط، ودليله تولى يوسف عليّس، وقد كان الملك كافراً على القول الراجح، وأهم هذه الشروط:

أولاً: ألا يترتب على اشتراكه في هذه الولاية إقرار كفر.
ثانياً: ألا تكون فيه مساعدة ظاهرة على الظلم فضلاً عن أن يقع في الكفر.
ثالثاً: أن تكون مصلحة المشاركة راجحة على المفسدة، بشرط عدم ارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، كالقيام بتنفيذ دستور كفري، أو حمايته وصيانيته.
أما القول بأن ذلك كفر بإطلاق، فلا يستقيم، ولعل فيه بُعداً، فإن ما كان اليوم كفراً لم يكن في شريعة نبي من الأنبياء براً، فالكفر والشرك ليس من قبيل المسائل التي يدخلها النسخ، بل هو من قبيل الأخبار المحققة، أما من حكم بأنها كفر لواقع معين ماثل كالإلزام - على سبيل المثال - بالقسم على دستور كفري ثم التزامه ثم المؤاخذه به، فهذا شأن آخر، ومسألة الأفعال التي قد يكفر بها في هذا الصدد والتي لا يكفر تحتاج إلى بحث وتحرير، ليس هذا موضعه^(١).

(١) انظر للمؤلف رسالة بعنوان: (جدل الديمقراطية والمشاركة السياسية)، حيث درس هذا الموضوع وبسط القول فيه، وفق الأصول الشرعية، والأصول المرعية في البحث.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، فلم يذكر عن الملك جواباً، مع أنه أجابه لسؤاله وولاه، وفي هذا نكتة وهي أن الوزارة أو الولاية ليست تمكيناً في حد ذاتها، بل قد تكون وبالاً ونكالاً على صاحبها، فلا يتبوأ من الأرض إلا ما حرس وحف وأمن قبل قدومه، ومع ذلك ربما لم يأمن صاحبها، فلما كانت النعمة الحقيقية هي ما وضعه الله ليوسف في قلوب العباد من الحب والتعظيم، والسرعة إلى الطاعة والتبجيل بحيث يتبوأ من أرضهم حيث يشاء ذكرها، وأعرض عن ذكر تولية الملك؛ لأن توليته لم تكن إلا لمصلحته ومصلحة بلاده، وقد صرح الملك بهذا فقال: ﴿أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي﴾.

* وبعد أن ذكر التمكين نوّه إلى أحد أعظم أسبابه ألا وهو الإحسان، فقال: الإحسان من أعظم أسباب التمكين ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، فالمُحْسِنُ فائز بلا شك، وحتى لا يتوهم إنسان أنه بالإحسان استعاض الأجر في الدارين، قال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ من سبقت له سابقة السعادة بمشيئة الله فليس في الوجود مُوجِبٌ ومُقْتَضٍ إلا مشيئة الله وحده؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، وذلك فضل الله، يمنُّ به على من شاء، وتلك رحمته، يصيب بها من أراد، ومن رحمته أن كتب على نفسه الإحسان لأهل الإحسان، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].



الترغيب والترهيب سياسة شرعية



ذكر اللباب * ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وهنا انتقلت القصة إلى ما فيه العبرة من مصير
وترك الفضول إخوة يوسف، فإخوته ما جاؤوا إلا بعد انقضاء سنوات الرخاء وبداية سِنِّي
من سمات كلام الشدة^(١)، وقصص القرآن الكريم جميعها تقتصر على مواطن العبر والعظات دون
الله تعالى تعرض لفضول الأحداث، فذكر اللباب وترك الفضول من سمات كلام الله تعالى.
ولمَّا كانت السنة وحياً كان في كلام النبي ﷺ شيء من ذلك، فقد اختصر
له ﷺ الكلام اختصاراً، وهذا مما فضل به نبينا على سائر الأنبياء^(٢).

* فلما دخل عليه إخوته عرفهم مباشرة؛ ولهذا عقب بالفاء: ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فَعَرَفَهُمْ﴾، أما إخوته فلم يعرفوه كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لأنه لم يكن
ليخطر ببالهم أن يكون العزيز أخاهم الذي ألقوه في البئر، ولأنه كان صغيراً
حينها، فلما كبر تغيرت ملامحه، ثم كأنه عليه السلام كان يتولى الإشراف والمتابعة في
التمويل بنفسه؛ لأن التفريط في هذا الشأن وإسناده إلى غيره ربما ضييع البلاد قبل
تمام السنوات المحلات، ومن كان هذا شأنه، فمن الطبيعي أن تدور بينه وبين
الوفود كلمات، وأخذ وردٌ ومحاورات.

(١) ذكره الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» عند هذه الآيات ٨٤ / ١٢.

(٢) كما في حديث أبي هريرة عند مسلم ٣٧١ / ١ (٥٢٣)، وأصله في «الصحيحين» من
حديث أبي هريرة بغير التفضيل في غير موضع.

* ويظهر كذلك أن في بعض تلك المحاورات ذكروا أن لهم أخاً، وقد كان يفرض للرجل حملَ بعير، كما قالوا لأبيهم لما قفلوا: ﴿وَنَزِدَاكَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، فلعلهم أرادوا الاستزادة من الميرة بذكر أخيهم له وإخبارهم بشأنه لما رأوا إحسانه، فأبى وأظهر الصرامة والحزم في تدبير أقوات الناس وخزينة الدولة، وقال لهم بعد أن جهزهم بجهازهم: ﴿أَتَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾، فإن كان لكم أخ كما تقولون فأتوا به، فلن أبخسه حقه، ولن أهين مقامه، ولو كنت أعطي الناس بدعواهم لذهبت خزائن الدولة، وفي هذا ترغيب مع حزم، ثم أتبعه ترهيب جاد فقال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٦٠]، فلا كيل لكم ببضاعة أو بغير بضاعة، بل لا تقربون لأكيل لأخيكم أو أبيكم، وذلك لأن ترك الإتيان به على الرغم من حصول الترغيب مع عدم المنع، يُشعر بالكذب وتحايل لأخذ المزيد بغير حق، ومن استعجل أمراً قبل أوانه، وطلبه بغير حقه كان جديراً أن يعاقب بالحرمان في المرات القادمة.

* وفي هذا الأسلوب ترغيب ثم ترهيب، واللفظ والترغيب، مع الحزم والترهيب، من أركان القيادة الناجحة؛ لأن القائد الناجح هو الذي يقدر على قيادة القلوب والأبدان، وقد فصل شيخ الإسلام في هذه المسألة في كتاب «السياسة الشرعية»، وبين أن المُلْك لا يقوم إلا بهما معاً، بل حتى في البيوت لا بد من الإحسان والرحمة والعطف واللفظ مع الحزم والجرأة في الحق.

* قالوا: ﴿سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن المسألة تحتاج إلى أخذ ورد، وأن الأمر ليس إليهم، وأن لأبيه مسوغات قد لا يستجيب لهم بسببها، غير أنهم أكدوا عزمهم على بذلهم قصارى جهدهم فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَفَعْلُونَ﴾ [يوسف: ٦١]، وفيه إشعار بأن ما في وسعهم سيبدلون، فلا تؤاخذنا بما ليس في أيدينا، فإن ذلك مقتضى الإنصاف الذي أنت أهله.

* ويبدو أن يوسف عليه السلام خشي ألا يجابوا فأراد أن يجعل لهم سبيلاً آخر للرجعة، فأشار من طرف خفي إلى فتيته بعد أن جهز القوم، بأن يردوا عليهم بضاعتهم في الأرحلة دون أن يشعروهم، فرد بضاعتهم إحساناً، وليكون لديهم

ما يشتركون به مرة أخرى، دون أن يتأخروا، ويظهر أنهم فهموا أن ذلك فضلاً منه وكرماً؛ ولهذا قالوا: ﴿يُضْعَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥].

* وقد يرد هنا سؤال، لم لم يطلب يوسف عليه السلام مجيء أبويه وأهله مع معرفته بمعاناتهم، ثم أليس في طلبه أخاه مزيد عناء يلحق أباه؟ ولعل من جواب ذلك إرجاع تصرفه للوحي، فقد أراد الله عز وجل أن يكتمل بلاء يعقوب عليه السلام رفعة لدرجته، وأراد أن يكون ذلك سبباً لكرامته وكرامة يوسف بعد إرد عليه بالقميص بصره، وسنة الله جارية على أن الفرج يأتي بعد أن تستحكم الحلقات، ويشتد الكرب، وتضيق الأمور، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُولُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ﴾ [يوسف: ١١٠]، وكل ذلك ابتلاء وتمحيص لينظر عز شأنه كيف يعمل عباده، وتأمل كم من عبرة لنا في هذا القدر الذي أجراه الحكيم الخبير!

مشروعية المقاطعة الاقتصادية
الظالمين والمعتدين اليوم، وقد أذن رسول الله ﷺ في استخدام هذا الأسلوب لتحصيل غرض مشروع طالما أن المصلحة الشرعية اقتضتها
* المقاطعة الاقتصادية سلاح فعال بيد الحكومات والشعوب لردع
الإرغام المشركين، ففي خبر ثمامة بن أثال لما أسلم و«قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتكم من اليامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»^(١)، فكان إقرار رسول الله ﷺ له مدة دليلاً على مشروعيتها، ثم لما اقتضت المصلحة رفعها وذلك بإذعان المشركين له واستجدائهم فضله أمر برفعها^(٢).



(١) متفق عليه؛ البخاري ٤/١٥٨٩ (٤١١٤)، ومسلم ٣/١٣٨٦ (١٧٦٤).

(٢) انظر في ذلك المقاطعة الاقتصادية للدكتور خالد الشمراني.

رحلة بنيامين^(١) احتياط وأخذ بالأسباب



* انتقلت الآيات تخبر عن حالهم في مضاربهم وأرض قومهم، ويبدو أن من شأن الأبناء الإخوة أول ما رجعوا ابتدروا أباهم، قبل الأهل والذرية، يسلمون ويخبرون بما كان من أمرهم، وهذا من شأن الأبناء البررة وذلك مشعر بشيء من تحولهم، ولو نزلوا عند أهلهم أولاً، لأنزلوا رحالهم في بيوتهم وعرفوا ما فيها، وكان فيما أخبروا به أباهم ما وعدوا به العزيز وأكدوه فقالوا: ﴿مُعَ مَنَّا لَكَ كَيْتَلٌ﴾، والمعنى: حُكْم علينا بالمنع من طلب الكيل بعد اليوم.

* ولما طلبوا محجيء أخيهام معه، أكدوا حفظهم له فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، إنها الكلمة نفسها التي قالوها يوم قالوا: ﴿أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]، لقد أعادت الكلمة إلى ذهن الأب الرقيق الشفوق صورة ابنه الحبيب: يوسف وهيجت الأحران.

عندها لم يتمالك يعقوب إلا أن: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فليس التعويل عليكم، بل على الله أعول، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وكلمات يعقوب هذه تشعر بأن المؤمن ينبغي أن يكون كيساً فطناً،

(١) ذكر كثير من المفسرين أن اسم الأخ الأصغر ليوسف عليه السلام هو بنيامين، وقد جاءت تسميته في آثار مرفوعة لا تثبت، وقد أثبت اسمه هنا جرياً على ما ذكره أهل العلم والمفسرون، ولم أقف على اختلاف في تسميته.

فلا يلدغ من جحر مرتين، لقد تعامل معهم بناءً على تاريخهم، فكان جرمهم الأول سبباً في فقدان ثقة أبيهم بدل أن يكون سبباً في خلو وجه أبيهم لهم كما ظنوا.

* ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فلما رجعوا إلى الإذن لبنيامين

متاعهم، وتفقدوه وجدوا أن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم، فلمسوا من ذلك كرم العزيز في الرحيل بعد الاحتياط

ورفقه بهم، فشحذ ذلك همهم ورفع معنوياتهم، فرجعوا إلى أبيهم وقالوا: ﴿يَتَأَبَّأْنَا

مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ

كَيْلٌ سِيرٌ﴾، أي هذا ما نريد: الأثنان، وطلب الميرة بها لأهلهم، وحفظ أخيهم

إن أرسل معهم ليزدادوا ميرة بعير. والميرة: اسم للطعام المجلوب، فهم لما رأوا

الأثنان عقدوا العزم على العود، فلما وجد يعقوب عليه السلام أن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم،

تبين له صدقهم، وبدا له شيء من إحسان العزيز ومثله يؤتمن، فقرر أن يرسل صغيره

معهم بعد أن يعطوه موثقاً من الله، ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ

لَتَأْتِيَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾، فرغم حرصه عليه السلام، على اتخاذ الأسباب لئلا يسوّل

الشیطان لأبنائه أن يكيدوا ببنيامين كما فعلوا بيوسف، إلا أنه ما نسي أن الأمر بيد

الله تعالى أولاً وآخرًا.

* خشي يعقوب عليه السلام على أبنائه من العين لكثرة عددهم فأمرهم ألا يدخلوا حكمة الدخول

من باب واحد، ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي من أبواب

عنكم من الله من شيء إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ متفرقة

ولعل السبب الآخر هو أنه خشي أن يصابوا إصابة جماعية فنصحهم بالتفرق في

الأبواب، وهذا هو التفسير المنقول عن السلف.

* ثم علم يعقوب عليه السلام أبناءه أن الاحتياط مطلوب، والأخذ بالأسباب الاحتياط

لازم، لكنه لا يغني عن العبد من الله من شيء، ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ والأخذ

إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ بالأسباب

* وأكد الله تعالى هذا المعنى فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف: ٦٨]، والحاجة هي أمره لهم بما أمرهم به من الدخول من أبواب متفرقة، الذي هو سبب للحفظ من العين بإذن الله، ثم ثنى بالثناء على يعقوب تنبيهاً إلى أن قوله: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ والذي يتضمن ربط السبب بمسببه، لا يعني اطراح الأسباب وإهمالها، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فقد جرت سنة الله تعالى بالخلق بها، ومتى شاء الله تخلف النتيجة عن سببها تخلفت، فأهل الحق يبذلون الأسباب الصحيحة ويتوكلون على مسببها سبحانه وتعالى.

ويجب الاعتدال في مسألة (العين)، فلا يبالغ فيها حتى يعاد أي ضرر يحدث أهمية الاعتدال إليها، كما يفعل بعض الناس، ولا تنكر، فالعين حق، وقد ثبت عن النبي ﷺ قوله: في مسألة العين «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»^(١)، ومع ذلك فقد جعل الله عز وجل أسباباً تمنع منها، كأوراد الصبح والمساء، وجعل أسباباً شرعية أخرى للشفاء منها إذا أصابت.



حِيل وَتَخْطِيط وَكِيدِ إِسْلَامِي



* يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وفيه دليل على جواز التناجي للمصلحة إن كان هناك أكثر من ثلاثة
 للمصلحة، إن كان المجلس عامراً بأكثر من ثلاثة، وقد كان غرض يوسف عليه السلام تهيئة أخيه لِمَا سيحدث فيستعد لذلك نفسياً، ولئلا يتأذى بتوجيه التهمة له وهو يعلم أنه بريء، وكل ذلك دليل على لطف يوسف عليه السلام وحكمته، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وذلك من فضل الله اللطيف بعباده يؤتي فضله من يشاء: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

* ويبدو أن يوسف عليه السلام لَمَّا جاؤوا بأخيهم، أوفى ما وعدهم فجهزهم بجهازهم، إلا أنه دَسَّ السقاية؛ ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ ويبدو أنها شيء يسقى به، وكان يستخدمها كذلك في كيل الطعام، أوفى تقدير مكاييل الدولة، وهذا هو الأليق بما يسقى به الملك؛ ولهذا قال القائل: ﴿ نَفَقْدُ صَوَاعِ الْمَلِكِ ﴾ أي: صاع الملك.

* وتأمل لما كان أمر رد البضاعة إلى رحالهم أمر فتيانته ﴿ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف: ٦٢]، لكن لما جاء شأن الصواع جعله هو في رحالهم، ولم يذكر في القرآن ما يشعر بأنه وكل به أحداً؛ لأن الكتمان هنا مطلوب،

فلم يأمر بذلك أقرب الناس إليه، إذ لا حاجة، ولا مصلحة بل قد يضر ذلك بتدبيره، بخلاف وضع البضاعة في الرحال، فلكل حالة ما يناسبها.

* ويبدو أنه ما إن تمّ وضع السقاية حتى أعلم يوسف عليه السلام بعض جنده بفقد الصواع، وأمرهم بالبحث عنه، ويبدو أن قرائن الأحوال أشارت إلى أنه لا يمكن أن يكون الآخذ غير هذه العير، إما لعدم وجود غيرهم أو لأن يوسف أو ما إليهم، والحاصل أنه قام مناد يكرر النداء معلماً: ﴿أَيَّتْهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾، وتأكيده للأمر يشعر بأنه لم يكن في المكان غيرهم، والمؤذن رغم اتهامه لهم - لِمَا احتفّ بالموقف من قرائن - فإنه لم يحدد أحداً بعينه وفي ذلك نوع من الحكمة.

* وتلاحظ في هذا الحوار من الأساليب المهمة في التربية وفي التعامل مع الناس من الأساليب إعطاء المخطئ فرصة ليعود عن خطئه، فيوسف عليه السلام لم يعدهم بالعفو فقط عن الجاني إذا ردّ الصواع، بل وعدهم بإعطائهم حمل بعير بدلاً منه، وأكد لهم الوعد، ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حُمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وفي هذا دليل على أن الغرض ليس اعتراف الجاني، لكن المهم إصلاح ما أفسده وتشجيعه على التخلص من الذنب. ليعود عن خطئه ولاهمية هذه اللفتة التربوية أضرب مثلاً: لو أخذ أحد الأبناء شيئاً من المال خفية، فحاول الأب دفعه للاعتراف فسيحاول الابن الإنكار ما أمكنه ذلك، فيجمع بين السرقة والكذب، بينما لو أشعره الأب بأن المهم بالنسبة له معالجة الخطأ، وأنه سيتجاوز عنه على ألا يعود، فسيستجيب الابن لطلب أبيه، وربما بين له الدافع لإقدامه على مثل هذا التصرف، وفي ذلك عون للأب على استئصال المشكلة من جذورها.

* ويبدو أن في شريعة أهل مصر كان المسروق يؤخذ ويعاقب السارق دون أخذه، أما في شريعة يعقوب عليه السلام وهي شريعة إلهية فكان يؤخذ السارق. ولو عمل

حكم السرقة في يوسف عليه السلام بشريعة أهل مصر كما تم مراده وهو أخذ بنيامين؛ لذلك حاور إخوانه الشرائع الماضية وأنزل السارق على حكمهم، توطئة لأخذه بإقراراهم، ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾.

* وكان من كيد الله ليوسف عليه السلام، أن ألهم الناظر تأخير النظر في وعاء أخيهما الصغير ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، ولو بادر إلى وعاء أخيهما ثم استخرجه منه فربما أثار بعض الشك؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي والتعقيب ﴿أَسْتَخْرِجُهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾.

* سكت بنيامين ولم يدافع عن نفسه، ومن هنا ينبغي أن نلاحظ أن المتهم قد يراعي بعض المصالح، أو يحاول دفع بعض المفاصد فيسكت ولا يدافع عن نفسه، لذلك ليس بالضرورة أن يكون كل من لم يبرئ نفسه مقراً على نفسه بالتهمة ولو عظمت؛ لذا فإذا اتهم أحد معروف بحسن السيرة فينبغي عدم العجلة في الحكم عليه بأنه اقترف ما اتهم به فعلاً، فيسع المرء السكوت عن الإدلاء بحكم غير مكلف بالبت فيه، ولا مصلحة له من الخوض فيه، بل ربما ترتب على نطقه وتعنيه ما لا يعنيه خطل كان في غنى عنه.

السكوت قد لا يكون إقراراً

إحكام العاطفة بعقل العقل، وتوجيه العقل بنور الوحي

* لم يعبأ يوسف عليه السلام -على إحسانه وكريم خلقه- بطلب إخوانه، ولم يستجب لرجائهم بأخذ أحدهم بدلاً من بنيامين مراعاة لحال أبيهم رغم أنه أشفق بأبيه منهم؛ لأنه لا مجال للعاطفة إذا قرر حكم العقل أن المصلحة في خلافها، فإذا كان مع ذلك وحي أو أمر شرعي فلا خيرة إلا فيما قضى الله تعالى، والقاعدة التي ينبغي أن يُستمسك بها إحكام العاطفة بعقل العقل، وتوجيه العقل بنور الوحي.

* قال يوسف عليه السلام لإخوانه: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَعِنَا عِنْدَهُ﴾، ولم يقل: من سرق؛ لأنه يعلم أن أخاه لم يسرق وإن وجد الصواع في

رحله، فكان دقيقاً في عبارته، فهو لم يتهم أخاه كما لم يثر الشكوك حول قضية السرقة، وإنما وصف الواقعة كما رآها الجميع.

* إن أخذ الناس بجريرة غيرهم من أشنع الظلم، وهو تعدُّ على حرمان من الظلم الله، وهو دأب الظالمين في كل زمان؛ ففي صدر الإسلام قاطعت قريشُ بني هاشم أخذ البريء بجريرة قريب ثلاث سنين، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن رسول الله ﷺ منهم، وفي زماننا هذا يعاقب اليهود ذوي المجاهدين فيهدمون بيوتهم، وربما أوسعوهم أسراً وتقتيلًا.

والمؤسف أن مثل هذا يحدث في كثير من بلاد المسلمين، فإذا أجرم أحد أخذوا بجريرته من تحدّث معه، ومن أشار إليه فضلاً عن الأهل والإخوان، والله المستعان، وهو أمر متوقع؛ لأن من لم يحتكم لشرع الله تعالى، احتكم لشرعة الطواغيت والعياذ بالله.

* ثم ذُيل الكلام بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ لأن في القصة رفع درجة رفع الدرجات وعلاقته بالعلم يوسف عليه السلام في الحال بالتدبير الحكيم من وقت مناجاته أخاه إلى وقت استخراج السقاية من رحله، ورفع درجة أخيه في الحال بإلحاقه ليوسف عليه السلام في العيش الرفيه والكمال بتلقي الحكمة من فيه، ورفع درجات إخوته وأبيه في الاستقبال بسبب رفع درجة يوسف عليه السلام وحنوه عليهم، وقد عبر عنه بالفعل المضارع (نرفع)؛ ليفيد الحال والاستقبال إشعاراً بأن تلك سنة الله التي خلت في أوليائه، وهي السنة التي سيسلك بها من استمسك بشرعه إلى يوم الدين.

* ثم عَقَّب التذييل الأول بتذييل ثان فقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ ليشعر بأن رفعة الدرجات متعلقة بالعلم، وليثبت أن أقصى رتبته لله الكبير المتعال؛ ولهذا عبّر بالفوقية ليشعر الظاهر بأن كل صاحب علم فوقه عليم

فضيلة العلم
وأنة أفضل
من الصورة
الظاهرة

هو الله، كأنك تقول: الله فوق المخلوقات على تفاوتها، فكذلك علم الله فوق علم المخلوقات على تفاوتها.

وفي هذه الآية بيان فضيلة العلم: علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنة أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض؛ فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

* قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وقد نسب الله سبحانه الكيد إلى نفسه، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦]، وكما دل عليه قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله سبحانه في قصة صالح: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، والمكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد فإن كان ذلك الغير يستحق ذلك الشر كان مكرًا حسنًا، وإلا كان مكرًا سيئًا، بل إن كان ذلك الشر الواصل حقًا لمظلوم كان ذلك المكر واجبًا في الشرع على الخلق، وواجبًا من الله بحكم الوعد إن لم يعف المستحق، والله سبحانه إنما يمكر ويستهزئ بمن يستوجب ذلك فيأخذه من حيث لا يحتسب، كما فعل ذلك الظالم بالمؤمنين، والسيئة ما تسوء صاحبها وإن كان مستحقًا لها، والعقوبة ما عوقب به المرء من شر.

* يوسف الصديق عليه السلام، كان قد كيد غير مرة: أولها: أن إخوته كادوا له كيدًا حيث احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه كما دل عليه قوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ

إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴿يوسف: ٥﴾، ثم إن امرأة العزيز كادت له بأن أظهرت أنه راودها عن نفسها، وكانت هي المرادة كما دل عليه قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصُصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، ثم كاد له النسوة حتى استجار بالله في قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْخٰٓسِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٤]، حتى إنه عليه السلام قال لما جاءه رسول الملك يستخرجه من السجن: ﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، فكاد الله ليوسف بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

* إذا كان المراد بالكيد فعلاً من الله سبحانه بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أموراً يحصل بها مقصوده بالانتقام من الظالم وغير ذلك، فإن هذا المتوكل على الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة.

* من كيد الله لعبده أن يلهمه سبحانه أمراً مباحاً أو مستحباً أو واجباً يوصله به إلى المقصود الحسن، فعلى هذا يكون إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل من كيده سبحانه أيضاً.

* فمن الكيد إذا ما هو مشروع، لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تستحل به المحرمات أو تسقط به الواجبات، فإن هذا كيد لله، ودين الله هو المكيد في مثل هذا، فمحال أن يشرع الله أن يكاد دينه.

* وخلاصة ما سبق هو أن الحيلة الشرعية هي من نحو الكناية والتعريض وغيرها من المباحات ولو في بعض الأحوال شريطة أن يتوسل بها إلى قصد صواب، وأما المحرمة فقد يكون القصد فاسدًا، وقد تكون الوسيلة فاسدة، فهذه لا تجوز بحال اللهم إلا إن كانت من باب الضرورة، أو من قبيل ارتكاب أخف الضررين لدفع أعلاهما؛ لِمَا تقرر من جواز دفع المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى ولو كانت هذه المفسدة الصغرى أمرًا محرّمًا لا يسوغ ابتداءً، وإن كان الناس قد توسعوا في ذلك حتى وقع كثير منهم في الحيل المحرمة.

تلخيص
التفريق
بين الحيلة
الشرعية
والمحرمة

* سَمَى اللهُ تَعَالَى سَمَى حَكَمَ الْمَلِكِ دِينًا؛ لِأَنَّ الدِّينَ هُوَ كُلُّ مَا دَانَ بِهِ الْإِنْسَانُ وَخَضَعَ لَهُ، حَقًّا كَانَ أَوْ بَاطِلًا؛ لِذَلِكَ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى طَاعَةَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ عِبَادَةً لَهُمْ، فَقَالَ: ﴿أَتَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فكَذَلِكَ طَاعَةُ الْمَلِكِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ثُمَّ تَرْتِيبُ الْجُزْءِ وَالْحِسَابِ عَلَى ذَلِكَ دَخُولُ فِي دِينِهِ، وَعِبَادَةُ لَهُ، حَاصِلُهَا تَرْكُ دِينِ اللَّهِ لِلدَّخُولِ فِي دِينِ الْمَلِكِ.

الحكم دين

* وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنْ فَرِيَةِ فَصَلَ الدِّينَ عَنِ الدَّوْلَةِ الَّتِي جُعِلَتْ فِي عَصْرِنَا هَذَا دَلِيلًا عَلَى الْحَرِيَةِ وَاحْتِرَامِ الْمَعْتَقَدَاتِ خُدْعَةً مَآكِرَةً، وَكَذِبَ يُغَرِّرُونَ بِهِ السَّدَجَ، فَإِنْ مَا يَسْمُونَهُ عِلْمَانِيَّةً هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ دِينٌ يَتَحَاكَمُونَ إِلَى أَسْسه، وَيَحْلُلُونَ وَيَحْرُمُونَ بِنَاءً عَلَيْهِ، وَهُمْ بِدَعْوَاهُمْ هَذِهِ يَرِيدُونَ أَنْ يُقْصُوا شَرِيعَةَ اللَّهِ وَدِينَهُ، وَيُعْبُدُوا النَّاسَ لَهْوِ الْعِلْمَانِيَّةِ؛ لِيُحْكَمُوا الْعُقُولَ الْقَاصِرَةَ فِي جَوَانِبِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ.

فصل الدين
عن الدولة
خدعة مآكرة

* ومن الدروس التنبيه على شيء من أخلاق الأنبياء السامية؛ لتتأسى بهم
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةُ قُلْ لَا آسَأُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فقد نيل من يوسف عليه السلام بغير بيّنة أو برهان،
﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، وقد كان في
مقام يسعه فيه العقاب بحجة السرقة، بل في مقدروه أن يأخذ ولو بغير حجة،
لكنه حلّم فلم يظهر مجرد تعليق خطر بباله، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ
يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]، وهذا سمو في الأخلاق، وضرب من الإحسان،
ومرتبة من مراتب الصبر والصفح.

* ومن الدروس الإشارة إلى أن اللسان ما لم يحفظه صاحبه فقد يورده موارد
الهلكة في الدنيا، وقد يكبه في النار على وجهه يوم القيامة، فإخوة يوسف نالوا منه
في هذا المقام وهم لا يشعرون، وحديثهم أذى وإساءة، فلا يقعن امرؤ في عرض
أحد من الناس عن ظن وتهمة فتلحقه الأذية في الدنيا، فإن سلم تعرض للوعيد
بأن يمسه العذاب يوم يقوم الحساب.



مشهد المؤمنين حال الأسى



* يقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ ، ظاهر الآية يفيد بأن محاولات كثيرة بُذلت ومفاوضات متعددة حصلت في شأن بنيامين، ولعل آخرها ما قصه الله تعالى من قولهم : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [يوسف: ٧٨] ، فحتى التكرم والتفضل والإحسان بأخذ آخر جُوبِهِ بالرفض التام. فلما وجدوا حزم يوسف عليه السلام ورفضه، يئسوا واليأس نقيض الرجاء، فهم قد انقطع رجاءهم من العزيز في تلك الحال.

* وعندها انفردوا عن الناس متناجين، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠] ، ويبدو أنه كان أكثرهم غمًا بما حدث، وأكثرهم تأسفًا على التفريط في يوسف، لقد بلغ به الحرج حدًا جعله يستحيي من لقاء أبيه بعد الميثاق الذي آتوه إياه على الحفاظ على أخيهم، ولعل الجرم الأول أحدث أثرًا كبيرًا في نفس هذا الكبير، والأغلب أنه أكبرهم عقلًا، فلم يطق مع اجتماع هذا الأمر مراجعة أبيه.

* أوضحت الآيات شديد حرصهم على الوفاء بعهدهم مع أبيهم، حتى بلغ بهم الأمر سؤال العزيز أخذ أحدهم إحسانًا عوضًا، وهذا مما يشعر القارئ بصدقهم في توبتهم، فإن التلاوم والحرص على حفظ أخيهم، وذكرهم أمر يوسف

بلسان الندم ووصف التفريط، كل هذا يشعر بأن حالهم قد انصلح، ولا يلزم من من علامات
انصلاح الحال بلوغ الكمال، ولكنها حال خير من حال، كيف لا وهم أبناء نبي
كريم؟! وقد قال بعضهم: إنهم نُبِّئُوا بعدد، وليس على هذا دليل كما قال الحافظ
ابن كثير^(١).

* ويبدو أن الشورى كانت ديدن أبناء يعقوب عليه السلام، ففي المرة الأولى لما
هموا بالتخلص من يوسف تشاوروا ثم اجتمعوا على رأي واحد، وتحملوا تبعاته أبناء يعقوب
مجتمعين، وفي هذه المرة أيضًا قلبوا الأمر سويًا ثم استقروا على رأي واحد ونفذوا
ما اتفقوا عليه.

ولا شك أن أصحاب العقول السليمة، والنفوس السوية يميلون إلى
التشاور مع غيرهم في كل أمر ذي بال؛ لأن الذي يصدر عن رأي واحد غير الذي
يستفيد من قدرات عدد من العقول وتجارب عدد من الناس.

والسنة النبوية مليئة بالأمثلة الدالة على حرصه ﷺ على استشارة
أصحابه وأزواجه في دقيق الأمور وجليلها، ورغم كل هذا الإرث النبوي
الضخم الذي طولبنا بالتأسي به، فمجالس الشورى في جلّ البلاد الإسلامية
صورية لا تستجلب آتياً ولا تذهب مقضياً. والأدهى من ذلك أن ظاهرة
الاستبداد تعدّت لتقتحم الحركات الإسلامية، التي ربما عانى كثير من
الحادين عليها من الاستبداد وانفراد شزيمة بالرأي، وربما عدم قبول النصيح
والمشورة، وما ينبغي هو أن تكون الشورى ديدن كل مؤسسة تريد أن يكتب
لها النجاح، ابتداء من الأسرة وانتهاء بالدولة. إن العقلية الفرعونية: ﴿مَا
أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] هي التي ضيعت
وانتهاء بالدولة

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٧٢).

العباد، وأضلت الناس عن سبيل الرشاد.

* وقولهم لما رجعوا إلى أبيهم: ﴿إِنِّكَ أَبْنَاكَ سَرَقٌ﴾ [يوسف: ٨١]، مشعر بشيء من الحنق على أخيهم؛ ولهذا نسبوه إلى أبيهم ﴿أَبْنَاكَ﴾ ولم يقل قائلهم: (أخانا)، مع أنهم عندما طلبوا صحبتته من أبيهم قالوا: (فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا) [يوسف: ٦٣]؛ ليشعروه بحرصهم عليه، ورعايتهم لموجب الإخوة، وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ اعتذار، كأنهم قالوا: لو علمنا بشأنه لرعينا أمره وحفظناه إما بتركه أو بمنعه.

* وقولهم: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ أي: كل من حلَّ القرية، والقرية لفظ يتناول المحال (الأماكن) التي فيها، وكذلك الحال بتلك المحال بها من إنسان ونحوه، فأطلقوا اللفظ وأرادوا به الحال لا المحال، كأنهم قالوا: اسأل كل شيء فيها ناطقاً أو غير ناطق فإنه يصدقنا، لاشتهار الخبر.

ولما كان سؤال القرية قد يشق أو يتأخر بإرسال الرسول، أرفدوا بتوثيق آخر: ﴿وَالْعِيرَ﴾، وهو اسم للإبل التي تحمل الميرة، ولفظها مشتق من العير وأصله دال على مجيء وذهاب، وهذا لا يكون بغير رهبا، وعبروا بهذا اللفظ إيغالا في التأكيد كسابقه، ثم أكدوا صدقهم ثالثة بـ(إِنَّ)، ورابعة بالجملة الاسمية، وخامسة باللام، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

* ومع عظيم حرقة يعقوب عليه السلام لم يقاطع ولم يرفع صوتاً، بل انتظر فراغهم ثم قال كلمة هادئة تنم عن صبر جميل، وعقل رجيح، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ٨٣]، أي: ليس الحق كما ذكرتم، ولا يلزم من ذلك رميهم بصريح كذب وتهمة، فلو كان ذلك كذلك لَمَا أمرهم - وهم الكاذبون عنده، المتهمون بالجرم - أن يذهبوا ويتحسسوا من يوسف وأخيه، فلعل مراده: جانبتم الحقيقة وقد زينت

حقيقة الصبر

لكم أنفسكم حمل أخيكم نحو أرض مصر، أو صواب ما ذكرتم.

الجميل

* ثم قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، والصبر الجميل هو الصبر الذي ليس معه تأفف ولا تشكُّ، وبعد أن أخبرهم بأنه صابر محتسب أعرض عن اللوم والتفريع والعتاب، وذلك من تمام عقله عليه السلام، بل في كلتا المرتين ما قرع أبنائه وما عاقبهم، بل وجَّههم لِمَا ينبغي فعله لحل المشكلة وتدارك الخطأ، فعَلَّ الحكيم الحازم رغم المصاب العظيم المائل.

* وقبل أن يقدم على التوجيه أعلن حسن ظنه بالله؛ ليقويه في نفوسهم، قال: حسن الظن

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي: يوسف، وأخوه، وكبيرهم، فتلك عاقبة بالحكيم
الصبر الجميل، والله تعالى عليم بالأمر على حقائقها، حكيم فيما يقضي ويقدر
على العباد.

الأسف والحزن

لا ينافي الصبر

الجميل

* ويبدو أن يعقوب عليه السلام كان صافي النفس، رقيق القلب، سريع الدمع، رجلاً أسيفاً، فلم يتمالك بعد تلك الكلمات عبرته، فانصرف عن جتهتهم، وهو يقول وهم يسمعون: ﴿يَكْأَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، وكأنه لَمَّا ذكر الثلاثة: الكبير والصغير ويوسف، خفف عنه أمر الأولين علمه بمكانهما، أما يوسف فعلى عظيم حبه له لا يعرف عنه ما عرف عنها، فناسب أن يعلن الأسف الصريح - وهو أشد الحزن - على أحقَّهم به وأحبهم إليه، وقوله: ﴿يَكْأَسْفَى﴾ لا ينافي الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه؛ لأنه من باب الإخبار بما في النفس من قبيل قول نبينا ﷺ: «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

* ثم أخبر الله تعالى عن تغيُّر بدني أصاب يعقوب جراء الأثر النفسي، فقال:

﴿وَأَبْصَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ [يوسف: ٨٤]، وهذا إخبار بفقد القدرة على

(١) «صحيح البخاري» ٤٣٩/١ (١٢٤١)، وغيره.

الإبصار، لا مجرد الضعف، وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: مكظوم، يعني: مُمَسِّكُ بَصَرِهِ محبوس عنه، وهذا متوجه، وبالأخص إذا روعي ما جاء قبيلها، أو يكون المعنى: مملوء همًّا وحزنًا لا يثبت شكواه إلى بشر، وهو صحيح أيضًا.

* وإذا كان الله حكيماً عليماً فليس لنا إلا الصبر والرضا والتسليم، ولا يعارض الحزن ذلك، فالحزن شعور لا بد أن يعتري الإنسان السوي إن وجد سببه، كالألم والغضب، بل كالجوع والعطش، ولما كان الحزن من عوارض الطبع البشري، لم يكن يومًا من الدهر محرماً في شريعة سماوية طالما كان مقتضيه صحيحاً؛ ولهذا قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقال خير النبيين ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَمْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣٣].

الحزن شعور
طبعي يعتري
الإنسان
السوي إن
وجد سببه

الحزن لا يختص
بضعفاء الإيمان
فيه الإحساس، فلا غضاضة في الحزن إذاً، فقد حزن الأنبياء وحزن الصديقون
أو الفجار
وحزن الصالحون، قبل وبعد يعقوب عليه السلام.

التفصيل في
حكم الحزن
وحالاته.
إن الحزن عارض بشري، يعرض للتقي والفاجر، والمسلم والكافر، فإن كان منشأ الحزن أمراً لا يد للمرء فيه، كقضاء كوني نزل فأصابه، أو كان منشؤه مشروعاً كجهاد قتل فيه ابنه، كان صبر المسلم خيراً له، وكان حزنه سبباً في تكفير سيئاته، فعن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١).

(١) «صحيح مسلم» ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

أما إن كان منشأ الحزن معصية فإنه إما أن يحزن على مقارفتها، أو على فوتها، فإن حزن على مقارفتها لها فهذا من جنس الأول؛ لأنه متعلق بالندم على الذنب وهو أحد أركان التوبة، وأما إن كان الحزن على فوتها فذلك حزن محرم، وأثره المترتب عليه مؤاخذ به العبد، والذي يحزن على فوت المعصية يشبه من عقد العزم على فعلها وليست عنده أسبابها.

إن الحزن مصيبة من جملة المصائب؛ ولهذا قال ﷺ كما في حديث أبي هريرة: «ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١)، وإذا كان كذلك فإن على المسلم أن يدافعه -أيًا كان منشؤه- ما أطاق، أو يكظمه ما استطاع، كما إن عليه ألا يخرج به الحزن -وإن كان منشؤه مباحًا أو محمودًا- عن حدود الشرع، فهذا لا يسوغ ممنوع، فإن كان الذي يجوع لا يسوغ له أن يأكل لحم الخنزير، بل عليه أن يتخير من الحلال الطيب، مع أن لحم أكل الخنزير قد يكون سببًا للشبع، فكذلك المحزون ليس له أن يذهب حزنه بمحرم. ولئن قتل الجائع نفسًا بحجة الجوع، أو قارف جرماً آخر ليس سببًا للشبع بحجة الجوع، كان ذلك من القبح بمكان أظهر. حدود الشرع فكذلك الذي يحزن ليس له أن يتكلم بما لا يليق، وليس له أن يشق ثوبًا أو يلطم وجهًا، أو يفعل فعلًا يخرج به إلى حد التسخط والجزع، فتلك أفعال محرمة، ولا علاقة لها بدفع الحزن، كحال من يجوع فيقارف جرماً ليس سببًا للشبع، بل تلك الأفعال مع الحزن أشد حرمة؛ لِمَا تضمنته من الحرمة ولِمَا اشتملت عليه من تسخط قدر الله.

(١) «صحيح البخاري» ٥/٢١٣٧ (٥٣١٨)، ونحوه عند مسلم.

لَمْ حزن
يعقوب كل
هذا الحزن على
يوسف؟

* ولعل سؤالاً يرد هنا: لِمَ حزن يعقوب كل هذا الحزن وقد علم من رؤيا يوسف أنه يلقاه؟ وجوابه أن يوسف قد رأى الرؤيا وهو صغير، فربما أخطأ، وقد يُجاب: كان يرجو أن يكون يوسف له خير عضد من البشر ونصير؛ لما توسم فيه من الخير، فلما فقد تلك الطاقة وذلك العضد، تأسف على فقدته وإن علم أنه في خير حال.

* وبرغم شدة حزنه فقد اجتمع في يعقوب عليه السلام إيمان راسخ، وقلب ثابت، وعقل راجح، وخلق ساجح، فلا تعجب إن قال في تلك الحال التي تتضعض فيها الأركان، وتخور عندها القوى، وتذهل من هول صدمتها العقول، لا تعجب إن قال بلسان الواثق في الله: ﴿يَبْنِيْ اَزْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِنَّهٗ لَا يَأْتِيْسُ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُوْنَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ثقة يعقوب في
الله وبثه الحزن
إليه

* ولعل أبناء يعقوب عليهم السلام أشفقوا على أبيهم وخافوا الحال التي بلغ أن تودي به، فقالوا: ﴿تَاللّٰهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهٰلِكِيْنَ﴾ [يوسف: ٨٥]، وغرضهم من هذا الكلام تنبيه عزيز عليهم وهم مشفقون عليه.

لكنه كان يعلم من الله ما لا يعلمون، فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، قصر وحصر فلا شكوى لمخلوق، بل حزني الذي يُشتكى فله.

الدنيا دار
بلاء ومن رأى
مصائب غيره
حمد القدر

* إن الدنيا دار بلاء، فالناس كلُّ الناس مُبتَلَوْنَ فيها بالضراء أو السراء، وكلما نظر صاحب المصيبة إلى حال غيره من المصابين، هان عليه ما هو فيه، ورأى لطف الله تعالى به، والمؤمن أولى الناس بذلك، فإنه مهما كان المصاب، فهو على غنم، قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١)، بل مع الصبر على الضراء تراه يحمد الله أن جعل مصيبته في دينه لا

(١) سبق تخريجه.

في دينه، بل ترى بعضهم يشهد في ذلك المقام المنة، فيعلم أنه وإن أعسر شهرًا فقد أيسر دهرًا.

* ولا ينافي الصبر والفرار إلى الله بذل الأسباب بل يقتضيها؛ فلذلك قال يعقوب بعدها: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فكل عسير إذا يسره الله يهون، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون، لا يقعدنكم اليأس، تحركوا وامضوا، فابحثوا عن أخبار من تلومونني في ذكره، وعن أخيه.

* إن يعقوب عليه السلام لقي من الإنكار ما لقي حتى من الأبناء، وربما رأى من لا يبصر بنور الوحي أن رأيهم هو الرأي، إلا أن يقين يعقوب وصبره عكسا القضية، فإذا بالمُنْكَرِ المخالف منذ قليل يتوجه إلى البحث عما أنكركلما رأى الصبر واليقين ماثلين أمامه، وإنما بحاجة في واقعنا المعاصر إلى أهل علم راسخين ينظرون بنور الله في الأمور، ويثبتون، فلا تصرفهم عن ذلك شناعة شنت، ثم يبصرون بنور الله أهل العمى عندها يجعل الله منهم أئمة وقادة لسفينة الحياة، وعندها يرسو الناس عند شاطئ السلامة وبر النجاة، بفضل اتباعهم الذين يعلمون من الله ما لا يعلمه كثير من الناس.

* أمر يعقوب بنيه أن يذهبوا فيتحسسوا، والتحسس مبالغة في التطلب التحسس والتعرف، ومن الفروق بينه وبين التحسس ما قاله ابن كثير رحمه الله: «التجسس غالبًا والفرق بينهما وبين التجسس إطلاق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير كما قال عز وجل إخبارًا عن يعقوب أنه قال: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما في الشر»^(١).

(١) «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٧١.

التفاؤل يدفع
الإنسان لتجاوز
المحن ويحفزه
للعمل ويورثه
الطمأنينة
وراحة البال

* والمقصود أن اليأس ما دَبَّ إلى نفس يعقوب قط رغم ما قيل له وما لقي مع طول المدة وبُعد العهد بيوسف، بل كان مع ذلك يستشرف الأمل ويبعثه في نفوس الناس، وليس هو أملاً مبنياً على الأوهام والتخدير والقيود، بل أمل إيجابي يحض فيه على الحركة والعمل الدؤوب.

إن التفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفزه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس وراحة القلب. والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنه يتطلع للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يتبع كل عسر.

وقد كان نبينا ﷺ ييشر أصحابه بالظهور على الكافرين في جزيرة العرب وما جاورها في أوقات كان الواحد منهم لا يأمن على حياته وهو في بيته، فكانت النتيجة تسابقهم لرفع راية الإسلام في كل البقاع، بنفوس منسرحة قوية واثقة في نصر الله.

إن سُمّ التشاؤم الذي يحاول المنافقون دسّه للمتمتدين لهذا الدين له ترياق جدير بإبطاله، ألا وهو تقوية اليقين بمعية الله تعالى وتوفيقه للمتوكلين الصادقين في صفوف المسلمين، وتعميق الإحساس بقدرة الله تعالى وعظمته في نفوسهم، وتبشيرهم ببوادر النصر التي تلوح في الأفق. ويكون ذلك بذكر حقائق الواقع الماثل، ففي فلسطين مثلاً، رغم تنكيل الصهاينة الغاصبين بالمجاهدين، ورغم تخاذل المسلمين عن نصرتهم، رغم ذلك ينطق تسلسل الأحداث بأن الغلبة لدين الله، وأن النصر لجند الله. فقبل ثلاثين سنة فقط لم تكن في ساحة المقاومة غالباً راية تعرف سوى رايات الشيوعيين والعلمانيين ودعاة القومية العربية، وأشباههم مع بعض عملاء الصهيونية، أما اليوم فيشد أبناء فلسطين على أيدي المجاهدين ويقدمونهم لقيادة البلاد، ورعاية مصالح العباد.

وقبل أقل من عشرين سنة كانت الراية المرفوعة: هي الأرض مقابل السلام، وكان القادة يتسابقون للقاء الصهاينة ومحاورتهم، بل على الأصح تنفيذ شروطهم وإملاءاتهم، واليوم يلتف أبناء فلسطين حول المجاهدين الذين أعلنوا أن الجهاد ماض حتى تظهر أرض الإسرائء كلها من كل الصهاينة المعتدين.

وقبل عشرين سنة فقط كان المظهر العام في فلسطين مثله مثل كثير من الدول العربية التي ابتليت بالتغريب والانحلال، واليوم يتجه الناس نحو الإسلام، بل صارت سجون الصهاينة كتاتيب ومعاهد يحفظ فيه الأسرى كتاب ربهم.

إذا فالواقع يصدق الشرع ويقول: إن الدين منصور، ألا بعدًا لليأس والتشاؤم، فلنأخذ بأسباب النصر، ولنثق بأن الذي يخرج اللبن من بين الفرث والدم قادر على إخراج النصر من رحم البأساء والضراء. أما الذي يدعي أنه متفائل ويقعد عن العمل، فهو عاجز لا متفائل، وقد روي في الحديث: «الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(١).



(١) «سنن الترمذي» ٦٣٨/٤ (٢٤٥٩)، ورواه غيره، وهو حديث ضعيف، تنظر «السلسلة الضعيفة» للألباني ٥/١ - ٤٩٩ - ٥٠٠ (٥٣١٩).

ظهور عاقبة التقوى جهاراً



* وصّى يعقوب عليه السلام بنيه ألا يأسوا من روح الله وأن يتحسسوا من أخويهم، فخرجوا من عنده وليس لهم ما يعتمدون عليه غير الله تعالى، وكفى بالله وكيلًا، فلما لقوا العزيز، استهلوا أمرهم بتقديم طلب، بدؤوه باسترحام، فقالوا: ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ﴾، وأرادوا أن يبينوا عظيم أثرها على خاصة أنفسهم ومن يليهم فعبروا بالضرر المشعر بذهاب نفع وتلف لحق بعض الأنفس، ثم بعد هذا الاسترحام قدموا طلبًا حاصله: جئنا بعروض زهيدة قليلة - وهي المزجاة يرغب عنها فتدفع - فآتّم لنا وأكمل المكيل المقابل لها، وزدنا فوق حقنا صدقة منك علينا.

دلالات
عودة الإخوة
وطلب
الصدقة

* قد يُقال: كيف طلب أبناء يعقوب عليه السلام من العزيز أن يتصدق عليهم بقولهم ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ وحضّوه على الصدقة بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، مع أنه من جملة أهل مصر وينبغي أن يكون دينه مغايرًا لدينهم، والكافر يجعل الله عمله يوم القيامة هباءً منثورًا؟ والجواب: أن الله يجزي المتصدقين ويجزي المحسنين مسلمهم وكافرهم، أولئك في الدنيا والآخرة، وهؤلاء في الدنيا حيث يعجل الله لهم ثواب إحسانهم فيها.

هل يجزي الله
المتصدق إن
كان كافرًا؟

* ولعل مما يظهر للمتأمل أن إخوة يوسف أرادوا مع مضمون هذا الكلام التوطئة والتهيئة بالاستعطاف للمساومة في غرض آخر، فهم ما خرجوا من ديارهم إلا ليتحسسوا عن يوسف وأخيه أولًا، فكأنهم أظهروا الفاقة، وما

أصابتهم من الضر وأهلهم، وشدة الحاجة المحلّة طلب الصدقة؛ ليقولوا بعدها:
إن هذا الذي نحن فيه أهون عندنا من أخذ أخينا، فإن كنت محسنًا وهذا دأبك
فخذهُ ولكن أرجع إلينا أخانا.

* وكأنّ يوسف عليه السلام لما رأى حالهم، وفهم مغزاهم، وسمع من أخبار إيثار حق الله
أهلهم، رَقَّ لهم، فرأى أو أوحى إليه كشف الأمر، فترع القناع وقال لهم: ﴿.. على حق النفس
مع القدرة من اخلاق الأنبياء
الأقرب تذكير وعتاب رقيق، فليس السياق سياق محاسبة وإنكار، فالعلم فيه حقيقة
مرادة، والمعنى: هل علمتم عاقبة ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ إلى أيِّ حال جرتكم؟
وأين ذهبت بأبيكم؟ قال الزمخشري: «كان كلامه شفقة عليهم وتنصيحًا لهم في
الدين لا معاتبة وتثريبًا؛ إيثارًا لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام، الذي يتنفس
فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله
أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها، والله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها»^(١)،
ثم كأنه أردف ذلك بالاعتذار عنهم فقال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾، وهذا مُشعر
بانصلاح حالهم، سَمَاهم جاهلين أو أن ذلك الفعل، أي: مذنبين.

* وفي قوله: ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ما يشعر بأن الإخوة أساءوا لأخيه وقد بث له
بعض ما وجد، ولو لم يكن من أذاهم له إلا حرمانهم له من شقيقه يوسف، وأخذهم
له من أبيه وتجيئهم عناء السفر لأجل كيل بغير لكفى، غير أنك تستشف من كلمة
يوسف، أخبار هموم وأشجان أخرى ضرب عنها الذكر صفحًا قد بثت إليه.

* ويبدو أن تلك الكلمات نزلت كالماء البارد على الحضور، فلا تسأل
عن دهشة الحاشية والجمهور، فحق للإخوة أن ينطقوا متعجبين: ﴿أَءَنْتَ﴾
لَأَنْتَ يُوسُفُ! ولما تضمن قولهم سؤالًا تعجبياً مؤكداً بمؤكدين، أجابهم

(١) «الكشاف» للزمخشري ٤٨١/٢.

عَلَيْهِمَا، بجواب تضمن تأكيدين الأول قوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ فلم يقل: نعم، بل صرح بالاسم المظهر، وعرفهم بأخيه (وَهَذَا أَخِي)، ثم قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾.

تعريف الصبر
شرعاً

* وهنا يرد السؤال الكبير: كيف ذلك، والعادة تقضي بموتك، أو بقائك في الرق عبداً ذليلاً لا في الملك رأساً عزيزاً، فكان الجواب الذي يرفع العجب ويوضح السبب وهو ملازمة التقوى وملازمة الصبر: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وتقوى الله أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، وهذا يقتضي اجتناب النهي، بجعل حائل بينك وبينه يمنع من التعرض له، والتزام الأمر من لازمه.

وأما الصبر فهو حبس النفس على أمر الله، وعن معصية الله، وعن الجزع عند قضاء الله؛ ولهذا ناسب أن يُوصَفَ محقق تلك التقوى وذلك الصبر بالإحسان: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، كتب ذلك على نفسه سبحانه رحمة منه وفضلاً فلا يذهب عنده جزاء العمل، ولا يفوت على المحسن عوض إحسانه. وأما تقديم القرآن التقوى على الصبر هنا، خلافاً لمواضع قدم فيها تصبروا على تتقوا، فلعله لمناسبة حال نبي الله يوسف الذي اتخذ الوقاية، ثم صبر بعد أن جاءه أمر الله. * قالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أثره عليهم فجعله عزيز مصر

تقديم التقوى
على الصبر

ذا الجاه والسلطان، وأثره عليهم بما حباه من كريم الأخلاق وحسن الخصال، وأثره عليهم بالتقوى والصبر، وأثره عليهم بالوحي والنبوة، فيشمل ذلك الإيثار في الدنيا بما أعطاه الله من نعم، والإيثار في الآخرة بما آتاه الله من النبوة، فها هنا قالوا مُقَرِّين معترفين بالذنب مشيرين إلى حسن التوبة وصلاح الأمر: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾، فعبّروا بالماضي وأكّدوه.

شمولية إيثار
الله ليوسف
خيرات الدنيا
والآخرة

* قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ومن كرمه أنه لم يحوجهم إلى التصريح بطلب العفو بل بادر به أول ما عرّضوا، فإن قولهم: ﴿وإن كنا لخطئين﴾ تعريض بطلب العفو.

* عفو يوسف عليه السلام في مثل هذا الموقف وحده درس من أعظم الدروس، إنه عظة وعبرة لأصحاب الأنفس المتوترة، والأحقاد المستورة، وما نالهم من الأذى معشار ما نال يوسف عليه السلام، انظروا إلى العزيز في ساعة الاقتدار، ومن آذاه في موقف الانكسار، وفي إمكانه أن يأخذه بذنبه أخذ الجبابة، فإذا به يعرض حتى عن اللوم والتوبيخ ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾، تجاوز عن كل ما كابده بسببهم عشرات السنين؛ وفوق ذلك سأل الله لهم العفو عما كان، والستر في الدنيا والآخرة، فقال مرجياً لهم في الله، دافعاً كل قنوط من رحمة الله؛ حتى لا تبقى في نفوسهم حسرة من فعلة الماضي: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، لئن كان هذا الصفع مني مغفرة ورحمة، فالله عز وجل أرأف بعباده وأرحم.

* وإذا تأملت قوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوُةَ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفِّي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وجدت تمام العفو، ولمست عظيم الكرم، فلم يقل اتنوني بأبي وأمي، بل ﴿بِأَهْلِكُمْ﴾ واسم الجمع إذا دخل على المعرفة، عم، وأكد ذلك المعنى بقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ قاصيهم ودانيهم، لا تتركوا أحداً.

* ولي مع قوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وقفات:

- منها أن القميص كان له شأن مع يوسف في ثلاثة مواطن: يوم أن جاؤوا عليه بدم كذب ليشهد على أكل الذئب له، ومنها قميصه الذي قُدَّ من دُبر وكان شاهداً على أن المرأة كذبت وهو من الصادقين، وهذا هو القميص الثالث، ولعله لما كان في المرة الأولى قد جاء الخبر السيئ بقميص ﴿وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمِ يَوْسُفَ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، ناسب أن يجيء الخبر الحسن بقميص، فقميص مقابل

قميص، وقميص يزيل أثر قميص، وهذا أمر مشاهد، وهو من الأمور النفسية العظيمة، فقد يعلق في نفوس بعض الناس شيء سيئ، فيزال بمثله.

يحسن بالإنسان
إذا أرسل
أحدًا بأمر
مهم ويخشى
أن لا يصدق
أن يرسل معه
قريئة تصدقه

- ومن فوائد بعث القميص مع إخوته: بيان أنه يحسن بالإنسان إذا أرسل أحدًا بأمر مهم ويخشى ألا يصدق أن يرسل معه قريئة تصدقه، كما فعل النبي ﷺ عندما قال لأبي هريرة رضي الله عنه: «يا أبا هريرة - وأعطاءه نعليه - قال: اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة»^(١)، فأعطاه النعلين آية مُصَدِّقَة.

- وفيه أن بعض الأشياء المحسوسة قد تؤثر في بعض النفوس دون بعض، وعلى العاقل أن يتعامل بواقعية مع تلك الأمور المؤثرة على النفس، فإذا علمت أن شيئًا له في نفس فلان أثر، فتجدر بك مراعاته أثناء التعامل معه وإن لم يكن لذلك الشيء في نفسك مثل ذلك الأثر.

* ومن فوائد هذه الآية إشعارها بحال يوسف وأن ما تولاه من الأعباء بعد الوزارة لم يكن يأذن له في كثير حركة، فالقيام بمصالح الرعية، أولى من أن يبحث عن مصلحته، ويتشاغل بها.



(١) «صحيح مسلم» ٥٩/١ (٣١).

أثر البشارة



* يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ

يُوسُفَ﴾ إن هذا المشهد يطبع في النفس إحساسًا خاصًا تعجز كلماتي عن التعبير عنه، ولنحاول التقريب، فيا ترى ما سرُّ تلك الريح؟ قال الرازي: «التحقيق أن يُقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة، ولا بد من كونها معجزة لأحدهما، والأقرب أنها ليعقوب عليه السلام، حين أخبر عنه ونسبوه في هذا الكلام إلى ما لا ينبغي، فظهر أن الأمر كما ذكر، فكان معجزة له. قال أهل المعاني: إن الله تعالى أوصل إليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجيء وقت الروح والفرح من المكان البعيد، ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدين من الأخرى في مدة ثمانين سنة^(١)، وذلك يدل على أن كل سهل فهو في زمان المحنة صعب، وكل صعب فهو في زمان الإقبال سهل^(٢). فإذا أقبلت على أمر يحزب فقل بلسان المؤمن الموقن: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً.

(١) بنوا تقدير المدة على بعض الأخبار ولم تثبت بها حجة، والأولى أن يقال مدة مديدة دون تعيين، والثمانون مدة طويلة جدًا، والله أعلم.

(٢) تفسير الرازي (١٨ / ٥٠٨).

* ثم قال: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون﴾ أي: لولا أن تنسبوني إلى الخرف، وبعض الناس تتمنى لو أنهم يكفون شرهم؛ فتلك صدقة على أنفسهم وعلينا، ولكنهم يثربون ويتكلمون وهم لا يعلمون، ويعقوب عليه في الوقت الذي يتطلع فيه إلى أي خبر عن يوسف يتحسب ردة فعل هؤلاء الأبناء فهل أجدى التحسب شيئاً؟ ما إن انتهى من كلمته حتى قالوا متعجبين: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، عبارة فيها غلظة وخشونة ما كان لهم أن يوجهوها لأبيهم فضلاً عن نبي، وذلك من جملة بلاء يعقوب عليه الذي قضاه الله له ليرفع به درجته، فإن ظلم وجهل القرابة وقعه في النفس شديد.

لقد قالوا كلمة شنيعة وأخطؤوا خطأ قبيحاً وجاؤوا أمراً يدور بين الكفر والقول النكِر، والجهل عذر قديم، بيد أن ذلك طرف يصور شيئاً من بلاء الأنبياء وما لاقوه من عنت وتكذيب.

* الذي ينبغي إذا رأيت محزوناً، إذا رأيت مصاباً، أن تواسيه، وإياك أن تضيف إلى مصيبتيه مصيبة، وإلى حزنه حزناً، حاول أن تساعد، حاول أن تبث التفاؤل في نفسه، حاول أن ترفع من روحه المعنوية حتى تخفف من مصيبتيه، فإن لم تستطع فكف شرك عنه، ... إن لم تكن لديك القدرة على مساعدته في محنته حسيّاً أو معنوياً فاحبس أذاك عنه، كما قال النبي ﷺ في وصيته لأبي ذر لما قال له: يا رسول الله، أرايت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»^(١).

إذا رأيت
محزوناً فواسه
وابعث الأمل
في نفسه

* وبعد زمن يسير وصل البشير يشهد متقدماً العير، يلوح بالقميص، وجاء اليقين، ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَبَصِرًا﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي

(١) «صحيح مسلم» ١/ ٨٩ (٨٤).

أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ [يوسف: ٩٦]، ويبدو أن أولئك الأهل والأحفاد كانوا قريين، أو أن جلبة البشير جمعتهم.

* وما تدل عليه هذه الآية أهمية المقدمات للأخبار المفاجئة، حيث كانت ريح القميص تمهيداً ليعقوب عليه السلام، فشم الرائحة قبل وصول الخبر، وتلك من إرهاباته؛ ولهذا كان من الأهمية بمكان تهية من حمل إليه خبر من هذا القبيل، فإن كان لا بد أن تلقي خبراً ثقيلاً على أحد فاختر الحال المناسبة وهيئة لاستقبال الخبر؛ حتى لا تكسر ظهره، وربما راعى بعض الناس هذا في الأخبار المحزنة وغفل عن مراعاته في الأخبار المسعدة، وكم وقعت بسبب خبر سار مفاجئ لم يتوقعه المرء من انعكاسات سلبية، وقد أثبت المؤرخون ورواة الأقاويص خبر من فجئ بالخبر السعيد فمات، ومن فقد عقله بالكلية، ومن فقد صوابه في موقفه.

* هنا لم يملك الأبناء والأحفاد إلا أن ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، أي: سل الله أن يعفو ويستر جرائمنا، ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، أتينا الخطأ عن عمد فصح إنزال وصف الخطأ علينا، والإقرار بالذنب على وجه الخضوع ضرب من الاستغفار.

* وهنا لك أن تقارن بين قولهم أول القصة: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩]، وبين مقامهم هذا المقام الذي تُقرع فيه سن الندم، وتُسكب في مثله عبرات التوبة، ويُعض فيه على الأصابع من الأسف، إنه موقف من أصعب المواقف، فما أشد لحظات الخضوع والاعتراف وما أقساها! فإياك إياك وما يُعتذر منه.

* وبالمقابل ما أشرفه من مقام! وأكرم بصاحبه وأنعم إذا وفقه من اختار سبيل الرشاد، ورأى الرجوع إلى الحق خيراً من التماادي في الباطل! قد يعظم الذنب وقد يسود منه الوجه، بيد أن عبرات التوبة كفيلة بجلائه، ويعقوب عليه السلام

يدرك هذا، فكيف كان موقفه؟ هل طردهم؟ هل عاقبهم؟ هل عَنَّفهم؟ هل بَكَّتْهم؟! بل ما نددت منه عبارة ولا تفلتت من بين شفثيه لفظة، ثم ها هو يصفح الصفح الجميل كما صبر الصبر الجميل، ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

أيها الآباء، أيتها الأمهات، أيها القادة، أيها المسؤولون، تعاملوا مع الناس بالشفقة، تعاملوا مع الناس بالرفق، تعاملوا مع الناس بالإحسان، تعاملوا مع الناس بالرحمة، ولتكن لكم في الأنبياء أسوة.

* وقد ناسب الوعد بالتسوية ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ حال الآخرين الذين لا يسعه طلب عفوهم عن إخوانهم وأبنائهم إلا بعد حين، فناسب ذلك أن يصرح باستغفاره الله لهم إذا جاء الأوان المناسب، ومع ذلك لم يدخل اليأس إلى نفوسهم، فعَقَّبَ قائلاً: ﴿... إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

* وفي هذا التسوية لفظة تربوية فكأنه أراد أن يشعرهم بعظم الجريمة وأنه لا يملك أن يقضي فيها عَجَلاً، وهذا توجيه يناسب مقام الأب أو الجد، أما يوسف عليه السلام فقد قام مقام الأخ الأصغر، فما أن رأى إقرارهم بالذنب، حتى أسقط حقه واستغفر الله لهم: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

* وقد كان إظهار التوبة وسؤال المغفرة في ذلك المقام من الأبناء من الحكمة، فهم بادروا لما بدت لهم الآيات فلم يتكبر أحدهم عن الرجوع إلى الحق الذي سطع برهانه، كما أن نفس أبيهم في ذلك المقام منسرحة وعينه قريبة فحري به أن يجيب، وهنا تنبيه للأبناء بأن يتحرى أحدهم الوقت المناسب عند طلبه مُهِمًّا من أبيه، والحال المناسب، فكم من ابن طلب من أبيه أمراً فردّه، ثم لَمَّا ناسب طلبه حالاً أو زماناً أجابه.

طلب المغفرة
وكل مهم
ينبغي أن
يتحرى
له الوقت
المناسب

فاختيارُ الوقت، والمكان، والشخص المناسب، مؤثّرٌ في إجابة الطلب من الأب أو الأم أو الزوج أو الزوجة، بل حتى من المسؤولين، فإذا كانت لك قضية وتريد أن تتقدم إلى المسؤول بطلب فيها، فكن لبقًا؛ أحسن الأسلوب، وتخيّر الحال المناسبة وكذا الوقت والمقام المناسبين.

* ومن الفوائد بيان أن «العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية،

فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب العبرة بكمال
النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف النهاية لا
ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير بنقص البداية
الراحمين»^(١).

* الإعراض عن ذكر غير يعقوب عليه السلام يُشعر بأن المواقف التي ينبغي أن تُخلد وتُذكر، هي تلك المواقف التي يخرج بها أصحابها إلى حد غير مألوف من الإحسان، وأن العبرة الحقيقية ليست في بيان الأحداث التي تهز العاطفة فحسب، وإلا لأخبرنا الله في القرآن عن بكاء أم يوسف، وعن كمدها على فراق أخيه، وغير ذلك من العوارض البشرية التي يقتضيها مقام الأمومة، ولكن كان الغرض بيان عاقبة الصبر والإحسان غير المؤلفين فانحصر الحديث في محله، والله أعلم وهو المسؤول أن يهدينا لفقه الكتاب.



(١) تفسير السعدي (٧٠٤).

تحقق الرؤيا وتقام المنة وما يستوجبها



* انتقل الكلام من بيت يعقوب إلى قصر يوسف بأرض مصر، على المعهود من اقتصار كلام الله تعالى على بيان موضع العبرة. ولما كان الاستقبال لا يشغل المشغول بتدبير مصالح المسلمين مثل الترحال لأجل البحث عنهم أو الإتيان بهم؛ خرج يوسف عليه السلام إلى مشارف المدينة ليستقبل أبويه وأهله، حيث يشعر ظاهر قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ﴾، بأنهم ما دخلوها بعد.

* قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، أجمع أهل العلم على أن هذا السجود سجود تحية وإكرام، وسجود التحية من قبيل تقبيل اليد، غير أنه حُرِّمَ في شريعتنا؛ صيانة لجناب التوحيد، وسدًا للذريعة الشرك، فلم يكن عبادة مصروفة ليوسف عليه السلام، بل من جنس سجود الملائكة لآدم عليه السلام، ولم يكن سجود عبادة بالاتفاق.

هل كان
السجود
ليوسف أو
كان شكرًا
لله ويوسف
جهته؟

وقد نُسخ سجود التحية في شرعنا ونُهي عنه فهو محرَّمٌ، ولو فعله أحد لأحد وهو يظنُّ أنه من ضرب التعظيم للمخلوق المشروع، فقد أتى بدعة منكرة، وطرق طريقًا في هاوية الشرك مردية، وأما إن فعله لمقبور أو وثن أو شمس، فقد أتى كفرًا أكبر، فإن تحية أولئك لا تعقل، فلم يبق إلا سجود العبادة، فإن قيل: بعض الأموات أحياء في قبورهم يُرزقون، قيل: لو كان حيًّا حياة دنيوية لَمَا عُقل أن يسجد أحد لآخر محجوبًا عنه خلف غرفة سجود تحية، فلو رأى أحد أحدًا يسجد في سطح دار فهل يتصور أنه يسجد تحية لمن بالطابق السفلي، ومن فيه محجوبٌ عنه لا يراه، بل لا يحس

به؟ ومن زعم أن الميت يراه وهو محجوب في قبره، ويعلم ما قام في نفسه من تعظيم له،
ويعلم أن سجوده له تحية وتبجيل ليس بعبادة، وظن أنه يسمع ما يسره في سجوده،
فقد اعتقد كفرًا، وجعل للميت في علم الغيب المختص بالله شركًا^(١).

* وهنا قال يوسف عليه السلام معلقًا على حدث السجود: ﴿يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ
مِنْ قَبْلُ فَدَجَّلَهَا رِبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ
أَن نَّزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رِبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ أي:
هذه حقيقة رؤيائي التي قصصتها عليك صغيرًا، قد صيرها خالقي ومالكي ورازقي
ومدبر أمري صدقًا، مطابقة لهذا الواقع، وكأنه يُشعر أباه بأن النعمة بذلك بلغت
تمامها، ويخبره بذكره لوصيته التي حفظها عنه وكان منها قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ
أَبْنَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

* وفي قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ
أَن نَّزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رِبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾
[يوسف: ١٠٠] مواصلة لما شرع في ذكره من نعم الله عليه، فذكر إخراجه من
السجن، وكذلك مجيء أهله من مضارب الشام، فإن له جملة أسباب تولد عنها
محييهم فناسب أن ينسب الفضل لمُسبِّب الأسباب سبحانه لا لسبب لا يستقل
بالتأثير في المجيء وحده.

(١) تنبيه: هذه مسألة غير المسألة المشهورة المتنازع عليها بين أهل السنة، أعني سماع الأموات،
فمن قال بالسماع - وهو قول قوي - لم يقل بأن ذلك مطلق من كل مكان وعلى كل حال سواء
كان سرًا أو جهراً، والمقصود هنا جملة أفعال حاصلها الاعتقاد في الميت ما لا يليق إلا بالله من
السمع، ولا يليق أن يعتقد في بشر حيًا كان أو ميتًا إلا على سبيل خرق العادة التي قام برهانها.

مراعاة
مشاعر
الإخوان

والملاحظ هنا أنه صرح بذكر الإخراج من السجن، ولم يصرح بالإخراج من الجُبِّ، مع أن إلقاءه في قعر مُظْلِمَةٍ طفلاً صغيراً أشدَّ بلاءً من دخوله مكاناً مأهولاً شاباً أو كهلاً، والأظهر أنه ترك التصريح به مراعاة لإخوته، ولوعده بعدم الثريب، ولعفة لسانه وحيائه عليه، فلم يصرح واكتفى بإشارة نسب فيها شيئاً إلى نفسه بل قدمها فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ اسم يفيد كثرة وعظم رفقه سبحانه بعباده، وإيصاله الخير لهم من حيث لا يحتسبون ولا يشعرون، وذلك لكمال إحاطة علمه بالظواهر والسرائر والخفايا، والبواطن والدقائق والخبايا؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، دلالة على ما اختص به سبحانه من الحكمة التي لا يشركه فيها أحد، وعلى العلم الذي لم يحط به سواه سبحانه.

معنى اسم الله
اللطيف والآثار
التربوية له

* وإذا كان الأمر كذلك والنعمة قد تمت، فكان من بدیع النظم أن قال معقَّباً: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقْقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، فهي إشاراتٌ بين الابن وأبيه -عليهما السلام-، وتذكيرٌ بما دار بينهما في الأيام الخاليات، بل تحدثٌ بالنعمة وتذكيرٌ بواجبها، وليست من الفخر أو الزهو بتحقيق الرؤيا في شيء. وأيضاً فإنه لما رأى من واقع الحال أنه قد بلغ التمام، وعلم أن لكل مبتدأ ختام، توجه بالدعاء مبتهلاً لمن دأبه الإحسان: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقْقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

أهمية التوسل
في الدعاء
بما يناسب
من الأسماء
والصفات

* وقوله: ﴿... فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما، وقد ناسب أن يدعوه بما يتضمن صفة الفعل هذه، فالذي فطر السماوات والأرض، هو الذي

يدبر الأمر فيهما، يُبَوِّئ من شاء ما شاء، ويختص بعض خلقه بما أراد، بعلمه وحكمته ورحمته.

* ثم قال: ﴿أَنْتَ وَلِيّ﴾ لما أراد أن يظهر الشوق إلى لقائه بسؤاله الموت على الإسلام، قدم ما يناسبه فقال أنت وليي: ناصري القريب إلي، وهذا خبر أراد به الدعاء يدل عليه قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، فالمعنى: كن وليي في الدنيا والآخرة، وكل ذلك تدرج بديع إلى السؤال الكبير: ﴿تَوْفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقَنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

* وقف معي عند قوله: ﴿تَوْفَّنِي مُسْلِمًا﴾، وتأمل في مناسبة هذا الدعاء، أهمية سؤال الله وانظر أيّ مقام كان يقوم؟ ثم انظر أيّ دعاء يقول؟! عِلِمَ عَلَيْهِ أَنْ بَعْدَ الْكَمَالِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَسَنَ الْخَتَامِ زَوَالًا؛ فسأل ربه إن جاءت منيته أن يموت على خير حال، وكأنك بنبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذَكَرَهُ الْمَقَامَ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَى نَفْسِهِ وَآثَرٍ، فلم يجد بداً بعد أن بَلَ شَوْقَهُ بِلِقَاءِ أَبَوَيْهِ وَذَوَيْهِ، من أن يبوح بما جاشت به نفسه من الشوق العظيم، إلى لقاء الجليل، فانطلق لسانه بتلك الدعوات يوم أن اخضرت الدنيا وأينعت ثمرتها: ﴿تَوْفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّقَنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. ولك أن تطابق بين قول يعقوب: ﴿وَيَتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ وبين قول يوسف: ﴿وَالْحَقِّقَنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ لتعلم أي منزلة بعد تمام نعم الدنيا طلب.

وقوله: ﴿تَوْفَّنِي مُسْلِمًا﴾ الأظهر فيه أنه ليس بتمن للموت، فالحال والوقت حكم الدعاء -وقت لقاء الأبوين- يبعدان هذا، وإنما هو سؤال لحسن الخاتمة والثبات حتى الممات. على النفس بالموت وهل دعاء يوسف * وتأمل حال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ضاقت به الدنيا فلم يقل: توفني! أُلْقِي فِي الْجُبِّ فلم يقل: توفني، وأقيم للبيع في سوق مَنْ يَزِيدُ - وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم - فلم يقل: توفني، وأتهم في شرفه وعرضه ولم يقل: توفني، وحُسِّنَ في

السجن بضع سنين فلم يقل: توفني، ثم لما تمَّ له الملْك، واستقام له الأمر، ولقيَ الإخوة سُجَّدًا، وألقى أبويه على العرش عنده، وطابت الحياة له، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، فعُلمَ أن حبه للقاء الله كان عنده أجلّ من النعمة التي حدثت له، فله حب الأنبياء ما أنبله، وإيمانهم ما أعظمه.

* وتمني الموت لضر نزل لا يجوز، أما تمنيه لغير ضر بمقتض صحيح فجائز على الصحيح، وفي حديث أنس المتفق عليه: «لا يتمنين أحدكم الموت من ضرٍّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»^(١).

بهذا تنتهي القصة وقد اشتملت كما رأيت على دروس وآيات ما أكثرها، وأما ما بعدها من آيات ختمت بها السورة فقد جاءت بتعقيبات متناسبة مع مطلعها ومقصدها، كما سنرى.

وقد جاء خبر يوسف فيها آية دالة على نبوة محمد ﷺ إذ أخبر الناس، وعلم بني إسرائيل من أبناء من ينتسبون إليه؛ إسرائيل - وهو يعقوب عليه السلام - وبنيه ما لا يعلمون تفصيله، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ومع ذلك أعرض أكثرهم فهم لا يسمعون!



(١) ينظر «صحيح البخاري» ٥/٢١٤٦ (٥٣٤٧)، ومسلم ٤/٢٠٦٤ (٢٦٨٠). ورواه غيرهما.

عوارض في طريق الدعوة

وعاقبة المعرضين



* قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا تذليل متعلق بأحد أهم أغراض السورة وهو تسلية المؤمنين عما يجابهون به ويلاقونه من تكذيب المشركين وأذاهم، وفي هذا ترهيد له ﷺ من أن تذهب نفسه عليهم حسرات، أو تهلك على آثارهم حتى يؤمنوا، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِنْ نُسَبِّهِمْ سَيْتَةً يَمَاقِدَ مَتِّ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

* ما يظنه بعضهم من أن الله ذم الحرص بإطلاق، ليس صحيحًا، بل تقسيم الحرص منه المحمود ومنه المذموم، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي الحرص إلى هريرة رضي الله عنه: قال ﷺ: «أحرص على ما ينفعك»^(١)، وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

* الحرص المذموم هو ما كان على أمر دنيا لا نفع فيه، أو ضره أكبر من نفعه باعتبار المآلات، فمثل هذا الحرص جدير بأن يُذم صاحبه، وقد نسب الله لليهود في معرض التعريض فقال: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

(١) «صحيح مسلم» ٢٠٥٢/٤ (٢٦٦٤).



* من المفاهيم الخاطئة عدُّ الحرص على أمور الدعوة محمودًا بإطلاق، والحق أن الحرص -حتى على أمر الدين- نوعان: حرصٌ إيجابي، وحرصٌ سلبي، فالحرص الذي يؤدي إلى إجهاد النفس وإرهاقها بأنواع الضغوط النفسية فلا داعي له؛ لأن هداية البشر بيد الله جل وعلا، وقلوب البشر بين أصابع الرحمن جل وعلا، لا نملكها نحن البشر، وإنما نملك البلاغ، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

فالواجب التفريق بين الحرص على المبادرة وبذل الأسباب واستفراغ الوسع، وبين الحرص الذي يحطم النفس إن فات مقصودها، فذلك حرص على ما لم يجعله الله إلينا، وليس وراءه إلا إثقال النفس بالهموم وإحراقها.

* ومن جملة التسلية قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وفيه تعريض بالمشركون، إذ عرضوا عن اتباع من لا يريد منهم شيئًا من الأجر مقابل الخير العظيم الذي ساقه إليهم، فليتهم رفضوه عن أجر ولو زهيد طلبه منهم، ولكن رفضوه بمحض الجهالة والسّفه.

الفرق بين
الدعوات
المأجورة
ودعوات
الأنبياء

* كثيرة هي الدعوات المأجورات، أعني بها التي غرضها الأجر ولكن في الدنيا! والأجر هو كل منفعة دنيوية، مالا، أو جاهًا، أو منصبًا، أو نحو ذلك، وهذه الدعوات في الغالب واضحة تتميز بالوفود من دول الغرب أو الشرق، أو تكون مبنية على أسس غربية أو شرقية، اغتر بها بعض منتسبي الإسلام وبنيه، وبعضها ربا اتكأ على أهواء متبعة وشبه محلية ليس للشرق أو الغرب فيها كبير يد، ويجمع سائرهما ضعف في الإخلاص وخلل في الاتباع.

ومن الدعوات المأجورة نوع غير ظاهر وربما -للأسف- سقط في حباله فضلاء، وربما كانت دعوات للخير في مجملها، ومن أبرز علاماتها موافقة المستأجر، فإن كان المستأجر هوى العامة، ألفيت دعواتهم تنسجم مع الموج، وإن كان هوى النفس وحب الشهرة والذكر، تلقى أولئك المأجورين على أحوال؛ فتارة يروجون لِمَا ينال استحسان الجموع، وتارة أخرى يركبون كل غريبة، ويحدثون الضوضاء العظيمة؛ لتلفت إليهم الأنظار، ولخطورة الأمر جاءت النصوص الكثيرة في التنبيه على أهمية تمحيض قصد الدعوة، ونبذ أخذ الأجر على الدعوة، كما في هذه الآية: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

وهذه الآية وما شابهها من نصوص رسالة إلى الدعاة وإلى العلماء وإلى طلاب العلم حاصلها: إياكم أن تطلبوا لأجل دعوة الناس وواجب البلاغ أجراً: أي منفعة دنيوية، فالجاء أجر، والتصدّر والتسودّ أجر، كما أن المال والأعراض أجور، والعمل لأجل ذلك كله يدخل في باب: (من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا).

* وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي هذا الذي لا تسألهم عليه الدعوة العالمية، حاجة الناس إليها ومسؤوليتنا تجاهها العالمين، فلتتساءل ماذا فعلنا تجاه هذه الأمم الضالة الحائرة في الشرق والغرب؟ هل بذلنا أسباب الدعوة التي تهيأت لنا؟ هل استنفدنا الوسائل الشرعية المتاحة لأجل إيصال الحق للعالمين؟ إن هذه الآية تحمّلنا مسؤولية كبرى، أسأل الله أن يجعلنا أهلاً لها، قائمين بها.

* إن حاجة الأمم لِمَا معنا من الذكر عظيمة، ولعل هذا من نكات تعقيب قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْرٍ﴾، بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ فإن الحاجة للشيء كلما ازدادت تأكد أن تكون مشاعة بغير أجر، كالماء والهواء، وإذا تأملت في معين الوحي، وجدت حاجة البشرية له أعظم الحاجات، فما حياتها بغير روح تهدي؟ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، إنها الحياة الحيوانية، الحياة البهيمية التي لم يخلق الله الخليفة لأجلها، فقد قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وإذا تبين هذا علم أنه لا يجوز لأحد أن يحجر تلك الدعوة العالمية، لا أن يمنع غيره من بلاغها، ولا أن يحبس في قلبه غيث الوحي الذي أنزله الله حتى يأسن فيه، فلا تنبعث به جوارحه، ولا يفيضه على غيره، وما أقبح صنعه إذا كان عار عليك ترك يحبسه بيتغي به أجراً أي أجر كان.

الدعوة

* عار عليك -أيها الكريم- إن رأيت إنساناً قد جهده العطش يستجديك شربة من نهر الله الذي أجراه بأرضك أن تمنعه، وبالمقابل ما أعظم أجرك إن سقيته، فقد صح عند مسلم أن امرأة بغياً من بغايا بني إسرائيل رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فتزعت له بموقها فغفر لها^(١). وكذلك عار عليك أشد أن ترى ضالاً بإمكانك أن تهديه فتحجم ليضل ويشقى ويصلى النار الكبرى، هل هذه إنسانية؟ هل هذا موجب الإيمان؟ هل هذه هي مكارم

(١) ينظر «صحيح البخاري» ٣/ ١٢٧٩ (٣٢٨٠)، ومسلم ٤/ ١٧٦١ (٢٢٤٥)، والموق: الخف.



الأخلاق التي جاءت بها الرسل؟ سبحان الله! كيف تتحرك مشاعر الواحد منا من أجل سقاية إنسان، ولا تتحرك للحاجة الكبرى التي عاقبتها جنة أو نار؟

* ومن التسليّة للنبي ﷺ كذلك قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، والمعنى: أن الصدود عما تحيي به ليس بدعاً في خُلق القوم، بل إعراضهم عنك كديدهم في الإعراض عن أيّ علامة ودليل كوني يدل على صحة ما تدعوهم إليه من توحيد الله، يمضون عليه فلا يلتفتون إليه، متغافلين له متشاغلين عنه.

الإعراض
عن التوحيد
يكون بجعل
الشركاء مع
الله
* وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ تنبيه إلى ما دخلهم من شرك في أمر دلت الآيات العظيمة على استحقاق الله وحده له، الشركاء مع الله
فيا حسرة على البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، يأتون الشرك وهم آمنون، ولا يعلمون أن فيمن أرسلت لهم الرسل من يصلون ويتصدقون ويصومون ويحجون، وربما زعموا أنهم على آثار نبي من الأنبياء، ثم يفرق هؤلاء المتأخرون بينهم وبين أسلافهم المتقدمين بفرق ساذج فيزعمون أنهم يشهدون للرسول بالرسالة، وأولئك ما شهدوا له بها، وكأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أرسلت عندهم لا لغرض! فهل أرسل رسول لغير الدعوة إلى أفراد الله بالعبادة: بالذبح والنذر والدعاء وغيرها؟ ألم يكن أبو طالب مُقرّاً بنبوّة محمد ﷺ؟ فهل أغنى عنه ذلك من الخلود في النار شيئاً؟!

نعم هناك فرق ظاهر بين المتقدمين والمتأخرين من المشركين، فأولئك فهموا معنى الشهادة فلم يلفظوها، وهؤلاء جهلوا معناها فلهجوا بها وخالفوها.

* قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٧] والغاشية التي تغشى أي: تغطي، والمقصود الإنكار عليهم إذ نبدوا الآيات، وخالفوا الرسل واستمروا الإعراض عنهم، وكأن عندهم من الله عهدًا ألا يعذبهم بجنس من عذاب الدنيا والآخرة، كشأن من حق عليه ذلك في الأمم السالفة، أو كأنهم آمنوا الساعة أن تأتيهم فجأة دون إعلام. فإن من آمن عذاب الله في الدنيا والآخرة أو علم أن الساعة لا تأتيه حتى يُؤذَن، فربما أعرض رакناً إلى ما آمن، فهل أولئك كذلك؟ هل يعتقدون هذا حقاً؟ إن هذا الاعتقاد لا يكون إلا مع عظيم الجهل والغفلة، ألم يكن حري بهم أن يفروا إلى ربهم؟ بلى، ولكن كما قال ربنا سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦].



منهج الدعوة وأس نجاحها



* يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، جاءت هذه الآية موضحة الذي يجب علينا، مبينة أسسًا مهمة من أسس الدعوة، حاصلها: يا محمد؛ أعلنها صريحة مدوية بيّنة جليلة لا خفاء فيها ولا غموض أن مسؤوليتك هي الدعوة والبلاغ، وقل هي طريق الدعوة طريق الممتد الذي أسلكه وأثبت عليه، وهذا يدل على أهمية الاطراد وخطورة وصفاته الاضطراب، وفيه بيان أن الدعوة محفوفة بالسماحة واليسر التي تلحظ في التعبير بالسبيل دون الطريق، وأما ما يعترضها من مشاق فبسبب أصحاب الأغراض والأهواء الذين يسوؤهم السير في ذلك الطريق، فلا بد أن يضعوا لسالكه الحسك والأشواك، ويحدثوا الحفر وأكوام التراب، وربما عرضوا له ليقطعوا عليه الطريق إن كانت لهم اليد والقدرة، ومع ذلك لا مناص من سلوك تلك السبيل؛ لأنها سبيل محمد ﷺ الذي أمرنا باتباعه.

* وفي هذه الآية دليل على مسألتين عظيمتين: الأولى: وجوب العلم وجوب العلم (البصيرة)، والثانية: وجوب الدعوة إليه، وهاتان المسألتان تستلزمان العمل والعمل بالعلم، وإلا فإلى ماذا يدعو الناس؟ وكذلك الصبر على الأذى فيه وذاك أمرٌ لازم لطريق الدعوة، فقد اقتضت سنة التدافع وجود أقوام يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به يبغونها عوجًا.

الدعوة إلى الله

على بصيرة

وواقع كثير من

الدعوات

* وهنا وقفة مهمة أشار إليها قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فإذا تأملت واقع الدعوة المعاصرة في العالم الإسلامي، وجدت كثيرًا من الدعاة المُبَرِّزين بل من قيادات العمل الإسلامي لم تكتمل لديهم البصيرة، بل ليست عندهم البصيرة الشرعية التي تؤهلهم للقيام بما هيئوا له، فهم لم تخصصوا في علم الشريعة، وليس لهم مجلس علماء أعلى يصدرون عنه ويأتمرون بأمره، كشأن كثير من أهل الاستبداد المتحكمين، نعم قد يكون ذلك الرجل متخصصًا في أمور أخرى، وهو على خير وهدى وصلاح، ولكن مثله ليس أهلاً لأن يقود العمل الإسلامي، أو يليق بطبيب حاذق أن يرأس فريقًا من المهندسين؟ وهل يناسب أن يرأس فريقًا من الجراحين مهندس؟ ولعل هذا سبب من أهم أسباب تأخر العمل الإسلامي، بل - وللأسف - فشل العمل الإسلامي في كثير من بلاد المسلمين.

قد يقول قائل: ربما لم يجدوا إلا هذا، فليس عندهم علم، وإن لم يكن إلا ذاك فلا شك أن من السياسة الشرعية تقديم الأكفأ فالأكفأ حسب الحاجة والطاقة والإمكان، فيقال لهؤلاء: ألا يمكنهم الظفر بم تخصص واحد في العلم الشرعي حقًا؟ لئن كان الجواب: لا يمكننا، فإن في تلك الدعوة لإشكالا، ولو فرض جدلاً أنه ما بها بأس ولكنه اندراس العلم في بلادهم، أفلا يمكنهم أن يبعثوا نفرًا ليتفقهوا في الدين خلال خمس أو عشر سنوات ثم يجيئون لقيادة العمل؟ ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وهذا الواقع في كثير من دعاة العالم الإسلامي لا يختلف عن واقع الرياسة، وما تأخرت أحوال المسلمين وتقهقروا إلى ما هم عليه الآن شيئًا فشيئًا إلا بعد أن تولى أمرهم - في جل بلاد الله - رؤوس جهال، أقصوا أمر العلماء شيئًا فشيئًا، وإلا فالأصل أن يقدم العالم لقيادة الأمة إذا توافرت فيه بقية صفات القيادة، كما



قدم الخلفاء الراشدون على غيرهم، فإن تعذر فلا أقل من أن يكون هناك مجلس شورى شرعي يكون هو الأمر الناهي في كل قضية شرعية، لا تنتقى لفضله أمور دون أخرى! إذا أردنا أن يكون الدين كله لله، هذا هو الأصل الذي لمّا تخلف تخلف أهل الإسلام منذ عقود، بيد أن الولاية العامة لها أعمال ومهمات تختلف عن قيادة العمل الإسلامي، فإن من تحمل أعباء صياغة مجتمع صياغة إسلامية وتصدر لهذا، لزمه أن يعرف الإسلام حق المعرفة أولاً.

* وقوله: ﴿وَمِنْ أَتْبَعَنِي﴾ قال ابن القيم رحمه الله: «أتباعه هم أهل البصيرة أتباع محمد الذين يدعون إلى الله»^(١)، فمن اجتمع فيه الوصفان، فهو من أتباعه، وكلما كمل العلم وكملت الدعوة كمل الاتباع، وكلما ضعفا، ضعف.

* ثم قال الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْنَا اللَّهَ﴾، وهذا عطف على قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾، فسبيله ﷺ يتميز بسمتين: الأولى: الدعوة إلى الله، وأول ما يدخل في ذلك توحيده اللازم لمعنى الله؛ الإله المعبود حباً وتعظيماً، والثانية تسبيح الله: أي تنزيهه من أن يكون له شريك، ولا شك أن شهادة التوحيد هي أصل الدعوة، فالأمر بالتوحيد يدخل فيه كل أمر بطاعة ومعروف، والنهي عن الشرك يندرج فيه النهي عن كل معصية ومنكر يدعو إليها ما سوى الله.

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه خلق الخليقة لتوحيده، وقصر الحكمة على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالقصد من هذه الخليقة: أن يُعظَّم الله، وأن يُطاع في هذه الدار، وأن يعظم أمره ونهيه، وتحكم شريعته، وأن يعبد وحده سبحانه وتعالى بطاعة وأوامره، وترك نواهيه، وقصده سبحانه في طلب الحاجات، وعند الملهمات، ورفع الشكاوى إليه، وطلب الغوث منه، والاستعانة به في كل شيء، وفي كل أمر من أمور الدنيا والآخرة.



من سبيله ﷺ
البراءة من
المشركين

* وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، عطف آخر أشار فيه إلى مقتضى ما سبقه وهو البراءة من أهل الشرك، فسبيل محمد ﷺ، الذي أمر أن يعلنه صريحاً: الدعوة إلى التوحيد، والتنزيه عن الشرك، والبراءة من المشركين أجمع، فالله المستعان وهو المسؤول أن يوفق لسلوك تلك السبيل.

أصول الدعوة
الثلاثة

* ولعل من نكت الجمع بين هذه الثلاث بيان أهمية التزامها جميعاً، فهي دعوة لكل دعوة بأن تراجع نفسها وتنظر في سيرها وسبيلها بناء على ضوء تلك الأصول، ومهما وجدت دعوة لم تعبأ بالتوحيد ولوازمه، ومهما رأيت دعاءً لا يعبؤون بتنزيه الله عن الشريك وعن كل ما يجب تنزيه الله عنه، ومهما أبصرت دعوة توالي أعداء الله وتقضي أولياء الله، فاعلم أنها على غير الجادة قد حادت عن سبيل المعصوم ﷺ، ومقياس القرب والبعد عن طريقه ﷺ هو درجة التزام الدعوة بتلك الأصول، ومدى قربها وبُعدها عنها.

الإشارة إلى أن
المؤهلين للقيام
بشؤون الدعوة
العامة هم
الرجال

* قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، فالله أرسل رجالاته، لم يرسل ملائكة أنبياء ولا جنات، فالمرسلون بشر خُلِقُوا مما منه خلَقُوا، رجال كسائر الرجال إلا أنهم مسدّدون بالوحي يؤيدون به، وفي هذه الآية إشارة إلى أن المؤهلين للاطلاع بشؤون الدعوة العامة هم الرجال، فما أرسل الله امرأة قط، وليس ذلك تنقُصاً لها فالله ما أرسل ملكاً للدعوة ولا أرسل امرأة، ولعل الحكمة في ذلك ترجع للجِيلة التي خلق عليها الرجل؛ فإنها تؤهله للقيام بواجب الدعوة العامة دون النساء.

أهمية دور المرأة
في الدعوة

ولا يعني هذا أن النساء لا ينبغي أن يكون لهن حظ في الدعوة، بل ينبغي أن يضربن فيها بحظ وافر، بل هن على ثغر لا يسد مسدّهن فيه غيرهن، فالمرأة هي الظهير والردء والخليفة في شؤون الداعية التي تلزم بيته، فما أعظم مسؤوليتها إذا انضافت إليها دعوة بنات جنسها أو أقاربها، وما أجل مكانها في قلوب المؤمنين

إن قامت بما يليها، غير أن الدعوة العامة التي تتطلب لقاء ومواجهة، وخطاباً ومناظرة، وجهداً ورحلة، واتصالاً بعموم الناس وبروزاً لهم، لا تناسب طبيعة النساء، وتعرضها كثيراً من المحرمات كالاختلاط والبروز في المجامع للعامة، وتليين الكلام معهم، إلى غير ذلك.

* وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَمْ﴾ للتقريع والتوبيخ والغابرين والإنكار، فهم قد ساروا وسمعوا الأخبار ورأوا الآثار، والضمير في ﴿يَسِيرُوا﴾ عائذ على من أنكر إرسال الرسل من البشر، ومن عاند الرسول وأنكر رسالته، فقال: هلاً يسIRON في الأرض فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة، ويرون مصارع الأمم المكذبة، فيعتبرون بذلك؟

* قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وإذا كان المال هو الانتقال عن هذه الدار، سواء حلت بالمكذبين المثلات التي نزلت بالأمم السابقة أو لم تحل بهم، فإن الدار الآخرة التي ليس بعدها دار خير للذين اتقوا الشرك ومخالفة الرسل في الدار الأولى، أفلا يعقل هذا المعنى فيُعَلِّمَ وَيُعَمِّلَ به!

* ثم قال الله مخبراً عن سنته الماضية في رسله، الباقية في أتباعهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، فذكر الغاية التي يجيء بعدها النصر، فقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ﴾ والاستيئاس استفعال من اليأس؛ لم يذكر الله تعالى ما صاروا يائسين منه، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس، والأقرب أن المراد: استيأسوا من إيمان مكذبيهم، فالسياق قبلها وبعدها يشعر به.

* وقوله: ﴿وَضَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ قرئت بالتشديد والتخفيف، والمعنى ما قالته عائشة رضي الله عنها وطائفة من السلف؛ أي: خافوا تكذيب من معهم من المؤمنين لهم، وهو الذي يتعين في السياق.

نصر الله آت
قريب ممن
صبر

* ثم قال الله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، بعد تلك الحال التي وصف، يجيء النصر، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، وإذا كان الأمر كذلك فاصبر للبلايا فحينها يسير، وأثبت للرزايا فأجرها كثير، وأحسن قرى ضيف لهم بالصبر الغزير، وتجلد على الظمأ فين يدك ماءً غريراً، ولا تكن من الظانين بالله ظن السوء فإن الله أولى بالجميل، ولا تكن من القانطين فإنه عز ذكره يفرج عما قليل.

رَأَيْتُ الْعَسَرَ يَتَّبِعُهُ يَسَارٌ وَقِيلَ لِلَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلٍ
وهكذا إذا بلغت الحال بالرسل وأتباعهم أقصاها، جاءهم نصر الله، إما بظهور المؤمنين، أو بعذاب من عند الله يهلك به المكذبين، وأياً ما كان، فحينها لن تجد لبأس العزيز الجبار معارض راذاً يدفعه عن مستحقه، وهم المجرمون.
* وقوله: ﴿فَنُجِّيَ مِنْ نَأْشَاءِ﴾ [يوسف: ١١٠] إشعار بأن الله ينجي من يشاء من عباده المؤمنين، فيجعل لهم الظفر، وقد يكتب الحسنى الأخرى لطائفة أخرى منهم، وأولئك لن يضيع الله أجرهم، بل ما أعظم غبطتهم بما يلقون، إما النصر وإما الشهادة.

* إن الفوز الكبير في الآخرة منوط بالثبات على الطريق بعد ولوجها، وليس منوطاً بقطعها، فإن النية تبلغ ما لا يبلغ العمل، والمعول على التزام المرء أمر الله، لا على ترك غيره من الخليقة أمر ربه، ومن جملة التزام المرء أمر الله تبليغ الرسالة، وأما الهداية التوفيقية فليست إليه، والانتصار الحقيقي هو ثبات المرء على منهج الله، وذلك هو الفوز الكبير، وإن مات أو قتل! ﴿قُلْ أَحْبَبُ الْآخِذُونَ﴾ ١ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ

الثبات هو
الفوز الكبير

يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

[البروج: ٤-١١] فهل رأيت في القرآن تعقيباً يصف الله فيه الفوز بهذا الوصف إلا في هذا المقام؟ فإذا فقهت هذا فلا تعجب إن رأيت رصاصة آتمة تخرق جمجمة مؤمن وهو يقول كلمة سلفه: «فزت ورب الكعبة» إي والله ذلك هو الفوز الكبير.

ولقد تأملت في واقع الدعوة في عصورنا المتأخرة فوجدت أن الدعاة والجماعات والمؤسسات الدعوية على أحوال، فمنهم من رأى أن طريق الدعوة طريق طويل شاق، فاستعجل قطعه، فخرج عنه وحاد ذات اليمين ليختصره فضلاً، فأعلن بعضهم الجهاد قبل أوانه، بل في غير مكانه، مع مَنْ شأنهم أن يكونوا من أهل دعوتهم، فكيف كانت النتيجة؟

ومنهم طائفة أخرى قابلت هؤلاء، أولئك هم الفئة اليائسة البائسة، دعت ودعت فلم تَرَ استجابة، طولبت ببذر بذورٍ فظنت أن لها ثمرة مأكولة وأنها مكلفة بجلبها وفي الحال، وإن لم ينزل الله غيثاً من السماء، وإن لم يكن ثمة ماء، فلما لم ينجح المراد انقسموا إلى فريقين: فمنهم من قعد قانطاً متشائماً آيساً ترك الحرث والبذر والعمل المكلف به المتعاقد عليه بالأجر، المتوعد على التلكؤ فيه بالعقوبة، فتركوا السير والعمل، وركنوا إلى ظل زائل، وقد كفّوا خيرهم وشرهم، فهم على عجرهم وبجرهم خير من الفريق الثاني: الذين رأوا أنهم مكلفون بجني الثمار، وبأي سبيل، فلما مرت الأيام ولم يروا للبذر أثراً، طفقوا يسرقون وينهبون ويستجدون ويأتون كل منكر لتحصيل ثمرة موهومة غير مرادة وليست بمأكولة! فتنازلوا وتساهلوا في دين الله وفرطوا باسم التيسير، وما كان التنازل عن شريعة

الله أو التفريط فيها تيسيرًا، بل إخراج للبشر من شريعة الله إلى عبادة البشر واتباع أهوائهم، وفي ذلك العسر في الدنيا والتيسير للعسرى يوم القيامة!

أما الفرقة الناجية والطائفة المنصورة فهي التي لم تزل على الحق ظاهرة، ملتزمة بمنهج الرسل، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

أهمية التفريق
بين الثواب
والمغبرات

ومن فقه هؤلاء أنهم يفرقون بين ما يلزم الثبوت عليه وما لا يلزم، يعرفون أن الوسائل أمرها واسع ما لم تخالف شرعًا، فكان هذا مما أهّلهم للثبات على الثواب وأصول الدين. وقد يكون هؤلاء في أزمان هم الغرباء الأقلون القابضون على الجمر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

* ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، المعنى: لقد كانت في أخبار يوسف وإخوته وأبيه وغيرهما من الأنبياء الذين ذكرهم في الآيتين قبلها عبرة أي: لقد كان في أخبارهم أصل ترد إليه النظائر، وتؤخذ منه العظات، ولكن لا يوفق للانتفاع إلا أولو الألباب أصحاب العقول الذين يقيسون ويعتبرون بالسابق على اللاحق، أما الذين عطّلوا عقولهم، معرضين عن دعوة الرسل، عمين عن الآيات التي يمرون عليها، فلا يعتبرون، وفي هذا تحذير لأولئك الذين يخوضون في قصص الأنبياء، ويأتون فيها بكل عجيبة من أنباء بني إسرائيل لأجل التسلية والإثارة، فالقرآن أنزل ليعتبر به، لا لمجرد السمر.

العبرة من
خصائص
أحسن
القصص

* وفي قوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ تنبيه إلى أحد أوجه قوله تعالى في أول السورة: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فقصاص القرآن لا تضاهيها الأخبار المخترعة، كقصص الخيال العلمي السمجة، وأحاديث الجن والغول، وترهات الأفهام والعقول، وسائر الخرافات الخارجة عن حد المعقول، إذ لا

اعتبار فيها ولا قياس تحصل به العظة، فغايتها هزّ عواطف الصغار وضعاف النفوس حيناً في غير جدوى، بل ربما أحدثت ضرراً، وبنت مفاهيم مغلوطة. أما قصص القرآن فيحصل بها الاعتبار من الواقع الحاضر أو التاريخ الغابر، فالقرآن وما تضمنه من أخبار ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾: يقتطع من تلقاء النفس ويختلق، ﴿وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧]، أي: هو حق مصدّق لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، كالطورا والإنجيل والزبور، يصدّق ذلك كله ويشهد أنّ جميعه حق من عند الله، كما أنه مبين للصادق منها، ومميز له عما زيد فيها وأسيء من تأويله.

* وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، صفة ثالثة من أوصاف للقرآن، فأما الأولى: فكونه عبرة، والثانية: ما كان حديثاً يفترى، والثالثة: أنه تفصيل كل شيء، فالقرآن مميّز وبيّن كل ما يصح أن يطلق عليه لفظ شيء، إما بخصوصه أو بعمومه، وقد لا يكون في كتاب الله تفصيله، لكن تفصيله فيما دل كتاب الله عليه، كما في كتاب الله من الأمر باتّباع السنة واتّباع سبيل المؤمنين، وفي ذلك تفصيل لكثير من الأشياء، فيكون تفصيلها في كتاب الله بهذا الاعتبار؛ لأنّ جامع الجامع جامع، ودليل الدليل دليل.

* ثم بيّن سبحانه أن هذا الكتاب الذي فيه تفصيل كل شيء لن يوصل متبعه إلّا إلى كل خير، فوصفه بأنّه هدى، يرشد من جهل الحق فعمي عنه، وإذا كان هدى فلن يضل متبعه، ثم وصفه بأنّه رحمة؛ ليبين أن متبعه كما أنه لن يضل فإنه لن يشقى، فليس تفصيل كل شيء وبيان حكمه ضرب من العنت بل هو هدى ورحمة، ولكن لقوم يؤمنون، يصدقون ويتبعون، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءُوهُ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

* وإذا كان هذا القرآن فيه تفصيل كل شيء، وهو مع ذلك هدى ورحمة، فما بال أولئك الذين يطلبون الهدى في غير هذا الكتاب؟! ما بال أولئك الذين شرّقوا وغرّبوا يقتبسون من شرائع الغاب وقوانين الغرب؟! ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، انظر إليهم في أقطار الأرض البعيدة إلى أيّ درك تردّوا؟ فعجباً لمن رأى الضلال البعيد رشداً، وعمي عن سبيل الهدى وطريق الرشاد وهو بين يديه! عجباً لمن ظن الحضارة والترقي حياة بهيمية في حظائر عصرية! لقد تشابهت قلوبهم، وأظلمت نفوسهم، وخفت نور الإيـمان عندهم، فلم يروا في الكتاب هدى ورحمة فذهبوا يقتبسون من نار الغرب المحرقة، ويتهافتون عليها تهافت الفرش مع أهلها، ويأبى الله أن يجعل أهل الإيـمان من أهلها، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أولاً يجدر بهم أن يسلموا للكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤٢]، أليس الذي أنزله هو الذي خلقهم؟! أوليس خالقهم هو الأعلم بالأمر الذي يصلحهم؟! ﴿إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْإِلَهَ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حِينًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. بلى والله فما أحوج الأمة إلى عودة صادقة إلى كتاب ربها لتعود إلى سابق عهدها، وتظفر بالهدى والرحمة.



خاتمة



وفي الختام حريٌّ بنا أن نتدبر العبر والآيات في هذه السورة، وما فيها من حسن عاقبة الصبر والتقوى، خلافاً لما يتوهمه المستعجلون الغالون أو المفرطون، فكم من موقف مر بيوسف عليه السلام لو عرض لبعض أهل التأويل والتساهل، لترخصوا بما لم يجعل الله لهم فيه عذراً! وكم من موقف لو عرض على الغلاة لما اتسع له فقههم جهلاً.

على العالم أن يتدبر هذه السورة؛ ليزداد يقيناً، وتنشرح نفسه وإن خالفه الجاهلون، أو فند رأيه المغترون بالظواهر، وأمور الدنيا.

على الداعية أن يتدبرها؛ ليعدل مساره، وفقاً للطريق الذي سار عليه أنبياء الله، والمنهاج الذي أرشدنا إليه الله عز وجل.

على الأمة أن تتدبرها؛ لينبعث في نفوس أبنائها التفاؤل، ولتعلم أن بعد العسر يسراً، وأن لله تدبير محكم، ولطف خفي، ومكر بأعدائه، وأنه منتصر لأوليائه.

على الناس أن يتدبروها؛ ليعلموا أهمية التوحيد، ومكان العقيدة الصحيحة في دعوة الرسل، ولا غرو إذ فيها النجاة وفيها السلامة.

علينا أن نقرأها للامثال والاعتداء معتقدين أن الخير كل الخير في كتاب ربنا، إذا أخذنا به صلح أمرنا، وإذا أعرضنا عنه خذلنا بذنوبنا.

هذا والله أسأل أن يجعلني وإياكم من أولي الألباب المعتبرين، التالين لكتابه
المتدبرين لآياته، الذين لهم من الهدى والرحمة في الدارين أوفر نصيب، فقد قال الله
تعالى: ﴿كَتَبْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَتَذَكَّرُوا أَيْتِيهِ وَلِيَذَكَّرُوا أَلْوَالَ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]،
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾
[النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].
والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى الأنبياء
والمرسلين، وعلى من سلك سبيلهم واتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٧	أسباب اختيار السورة.....
٩	بين يدي السورة.....
١٢	وقفه مع القصة في الوحين.....
١٤	مكانة العقل في الإسلام.....
١٦	أحسن القصص.....
١٨	المفسرون والإسرائيليات.....
١٩	الرؤى وأضغاث الأحلام.....
٢٥	دروس تربوية.....
٣٢	نتائج المقدمات الفاسدة.....
٣٤	المقدمات الفاسدة توقع في جملة أخطاء.....
٣٧	من البئر إلى القصر.....
٣٩	قصة العفة.....
٤٥	إذا فشت الفاحشة استمرت.....
٤٨	مع الحكمة قد تكون المحنة منحة

الصفحة	الموضوع
٥٨	رؤيا الملك.....
٦٩	الداعية وتنقية الصحيفة والبعد عن الريبة.....
٦٣	الولاية والتمكين.....
٦٨	الترغيب والترهيب سياسة شرعية.....
٧١	رحلة بنيامين.....
٩٣	احتياط وأخذ بالأسباب.....
٧٤	حيل وتخطيط وكيد إسلامي.....
٨٢	مشهد المؤمنين حال الأسى.....
٩٢	ظهور عاقبة التقوى جهازاً.....
٩٧	أثر البشارة.....
١٠٢	تحقق الرؤيا وتمام المنة وما يستوجبه.....
١٠٧	عوارض في طريق الدعوة وعاقبة المعرضين.....
١١٣	منهج الدعوة وأس نجاحها.....
١٢٣	خاتمة.....
١٢٥	فهرس الموضوعات.....

تم بحمد الله